تطور فلسفة مفهوم الدولة
دراسة نقدية مقارنة
The evolution of the philosophy of the concept of the state critical study

إعـــــداد :

د. خلف محمد متولي نصار

أستاذ مشارك العقيدة والمذاهب المعاصرة –
كلية الدراسات الإسلامية - الجامعة الإسلامية

E-mail: khalafelmetwaly@gmail.com

رقم الهاتف: 00201152823855

الملخص

تناولت هذه الدراسة تطور فلسفة مفهوم الدولة وكيف أثَّر تعاقب الأفكار والحضارات في بناء هذا المفهوم وصياغته , ومفهوم الدولة تطور وتنوع تنوعا لا يُستطاع معه حصر المفاهيم أو استقصائها؛ لذلك كان هدف هذه الدراسة بيان نماذج من التطور الحاصل في فلسفة مفهوم الدولة مع نقد المفاهيم التي نشأت في أطوار البناء قديما وحديثا، مع الوقوف على فلسفة مفهوم الدولة في الإسلام الذي انتابه تنازع واختلاف، فأقامه البعض في معرض التكفير، أو التأطير لحساب أفكار منحرفة أو دخيلة على فكر الإسلام الصافي وهذا ما ستحاول الدراسة الكشف عنه في ثناياها والوقوف مع هذه الأفكار عرضًا ونقدًا .

إشكالية الدراسة: تتمحور حول ضبابية فلسفة مفاهيم الدولة عند التداخل الفكري والمعرفي الذي تعارضت فيه تلك المفاهيم، واحتكار بعض تلك المفاهيم والتقوقع حولها ورفض بقية المفردات التي وسعها ذلك المفهوم.

وقد أبرز البحث تلك المفاهيم وفلسفة القائلين بها من واقع البنية المفاهيمية والدينية والفكرية المحيطة بها لكي نستطيع من خلاله فرز الأقوال مع قولبتها في قالبها الزماني والمكاني المناسب.

منهج الدراسة: المنهج الوصفي النقدي بحسبانهما أقرب المناهج لموضوع الدراسة.

أهم نتائج الدراسة: توصلت الدراسة في أهم نتائجها إلى أن مفاهيم الدولة المختلفة المتغايرة لها سياقات تخص كل فكر لا تتعداه، وكذلك كشفت عن زيف ادعاء من احتكروا مفهوم الدولة الإسلامية في أفكارهم وجماعاتهم وأيدلوجياتهم.

الكلمات المفتاحية: الدولة – الخلافة – الفلسفة – الفكر

Summary

This study dealt with the development of the philosophy of the concept of the state and how the succession of ideas and civilizations influenced the construction and formulation of this concept. The concept of the state has developed and diversified so much that it is not possible to limit or investigate the concepts. Therefore, the aim of this study was to show examples of the development taking place in the philosophy of the concept of the state, while criticizing the concepts that arose in the stages of construction, ancient and modern, while examining the philosophy of the concept of the state in Islam, which was plagued by conflict and disagreement, so some established it in the context of excommunication, or framing to account for deviant ideas or Alien to the pure thought of Islam.

The problem of the study: It revolves around the ambiguity of the philosophy of state concepts when there is intellectual and cognitive overlap in which these concepts conflict, and the monopolization of some of those concepts, isolation around them, and rejection of the rest of the vocabulary expanded by that concept.

The research highlighted these concepts and the philosophy of those who propagate them from the reality of the conceptual, religious, and intellectual structure surrounding them, so that through it we can sort out the sayings and mold them into their appropriate temporal and spatial context.

Study methodology: The descriptive-critical approach, as they are the closest approaches to the subject of the study.

The most important results of the study: The study concluded in its most important results that the various different concepts of the state have contexts that belong to each thought and do not go beyond it. It also revealed the falsity of the claim of those who monopolized the concept of the Islamic state in their ideas, groups, and ideologies.

Keywords: state - caliphate - philosophy - thought

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد،

فإن الله رب العالمين خلق الخلق بقدرته سبحانه وتعالى وأسكنهم الأرض لحكمة منه ذكرها في كتابه العزيز: { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ } هود: ٦١ وجعل سبحانه- جل وعز - بني آدم خلفاء في الأرض أي يخلف بعضهم بعضا {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } البقرة: ٣٠

وقد علم سبحانه بسابق علمه نوازع الناس واختلاف مشاربهم ومناهجهم وأفكارهم، ثم جعل سبحانه من لوازم الخلافة في الأرض إقامة الحكم وإدارة شئون الحياة وتنظيم أمورهما فيما فيه صلاح العباد والبلاد، فقال سبحانه وتعالى قارنا بينهما في كتابه الكريم مخاطبا بهما نبيه داود - عليه السلام -: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } ص: ٢٦

وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تختلف الرؤى والأفكار وتتباعد الأمكنة والأقطار، فينشأ في الناس فكرة الدولة التي ينتسب إليها أناس مختلفون في الطباع والسلوك يعرفون أهميتها ويعملون لرفعتها ورقيها، ويحفظونها من غارات الأعداء إذا استلزم الأمر ذلك.

وشأن مفهوم الدولة شأن أي فكر أو نظام أو جماعة تحول عليه الأيام والسنون فيتغير وتطرأ عليه عوامل نهوض واستقرار أو نضوب وانهيار.

وكذلك مفهوم الدولة مر بمراحل متتالية أثرت فيه خلالها طبيعة المكان والثقافة والأشخاص والفلسفات والأيدلوجيات، فكان لكل جماعة من الناس على مر التاريخ مفهوما يكاد يكونا مختلفا عن

الباقين منسجما مع ما سبق من عوامل، وهذه المفاهيم العديدة حمل لواءها أحيانا مفكرون وفلاسفة وحكماء، وأحيانا تُستنبط تلك المفاهيم من التاريخ وفلسفته، وكذلك من النقول والأطروحات التي تحمل فكر أصحابها ومنظريها.

ويمكننا القول إن مفهوم الدولة لا يُستطاع حصره إلا بمشقة من كثرة ما توارد عليه من مفاهيم وتعريفات مما يشي بمرونة هذا المفهوم وعدم احتكاره من قبل فرد أو جماعة هنا أو هناك ولا يستطيع أن يدعي مدع إحاطته أو اكتنازه المفهوم الجامع المانع إلا بعد نظر علمي سديد ورشيد.

ولأجل ذلك كانت هذه الدراسة تحمل هم التفتيش والبحث عن تطور هذا المفهوم وبيان حقيقته وماهيته في كل فترة زمنية مختلفة، ولا نبتغي في هذه العُجالة البحثية الاستقصاء، فذلك دونه صفحات مطولة لا يتسع لها هذا المقام المقتضب.

إشكالية الدراسة:

تكمن إشكالية الدراسة في غياب الوعي التام والكافي نحو فلسفة الدولة وأطرها مع اختلاف مفهومها المتعاقب وهل يتوجب علينا الالتزام بمفهوم خاص من تلك المفاهيم أم أن هنالك اعتبارات أخرى تتدخل في تشكيل مفهوم متلاءم ومنسجم للعصر الذي نحن فيه.

هدف الدراسة:

الذي تسعى إليه هو الوقوف على التطور الحاصل في مفهوم الدولة على مر العصور تمثيلا لا حصرا، وذلك لكثرة المفاهيم التي وردت في كل عصر أو حقبة زمنية مختلفة والذي يعنينا في هذه الدراسة ليس السرد التاريخي للوقائع والأحداث بل تنطلق الدراسة من التأريخي إلى فقه التاريخ وفلسفته بله تجعل من الزمان والمكان والأشخاص والأفكار مكونا وعاملا رئيسا في نشوء المفاهيم وتكونها.

أهمية الدراسة:

تكمن في تسليط الضوء على مفهوم ثار حوله لغط ووقع فيه غلط من قِبَلِ بعض الجماعات والأفكار المتطرفة المنسوبة ظلما وبهتانا

إلى الإسلام العظيم والتي أرادت بجهلها اجترار الإسلام بشموله وعظمته وسعته إلى ضيق الأفق وضحالة الفكر المنغلق القابعة فيه.

وما فعلته داعش وقبلها جماعات التكفير والتفجير خير مثال على ذلك، والذي كان له الأثر السيء على الإسلام وأهله ودور الأمة الآن بيان هذه الأفكار والتحذير منها مع بيان الحق في تلك القضايا ووضع الأمور في نصابها بمقتضى المنهجية العلمية.

وهذه الدراسة أرجو من الله أن تكون إضافة للمكتبة الإسلامية ومرجعا للباحثين في موضوعها.

منهج الدراسة:

يعتمد على المنهج الوصفي النقدي المقارن، وذلك برصد تلك المفاهيم المتعاقبة للدولة ثم النظر فيها والكشف عن مرامي أصحابها، ثم الولوج إلى فحصها وبيان ملاءمتها واتفاقها، وكذلك تنافرها وعدم اتساقها مع مبادئ أصحابها.

أسئلة الدراسة:

تطرح الدراسة عدة تساؤلات منها:

- ما المفهوم المتكامل للدولة؟
- هل مفاهيم الدولة المختلفة متعارضة فلا يمكن الجمع بينها؟

الدراسات السابقة:

لا يخفى على باحث في العلوم على اختلاف الحقول المعرفية أن توارد الأفكار والرؤى أمر جائز وممكن ولكي تكتمل النظرة لابد وأن تتوافر حولها بحوث مختلفة كل منها يبني لبنة في بناء مسألة ما أو قضية معينة وموضوع دراستنا عالجته أقلام مختلفة النوازع والمناهج ولا شك أن الرؤى والمناهج تختلف باختلاف أصحابها ومواردهم وأفكارهم وأيدولوجياتهم ولكيلا يكون قولنا ضرب من التنظير البعيد عن التدليل والنماذج الكاشفة لما نحن عليه في هذه الدراسة فمن هذه الدراسات التي تناولت هذه المسألة:

- **أبو رويلة الصديق عبد الله:** تطور مفهوم الدولة في الفكر اليوناني،

مجلة الساتل العدد س٩,ع١٤ جامعة مصراتة – ليبيا.

وفي هذه الدراسة استعرض الباحث تطور مفهوم الدولة مقتصرا على حقبة معينة وهي الفكر اليوناني والذي يميز دراستنا – الباحث - عن تلك الدراسة سوق الحديث عن الدولة في إطار الفلسفة والسياسة وعلاقتهما بمفهوم المدينة والجمهورية عند أفلاطون وأرسطو وفي فكر اليونان بعامة فلم تنفك دراستنا عن الرجوع للتأصيل الفلسفي اليوناني وهذا ما يخالف ما تعرض له أبورويلة الصديق عبد الله.

- **محمود حيدر** [١] : الدولة فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية (العتبة العباسية المقدسة) ط ١ , ٢٠١٨م/١٤٣٩هـ.

ومن تصفح عنوان هذه الدراسة نتعرف طبيعة الزمان والمكان إذ إن الدراسة تتمحور حول مفهوم الدولة عند الإغريق إلى ما بعد الحداثة فتعرض في الفصل الأول لماهية الدولة وهويتها وفي الفصل الثاني الدولة القديمة وذكر بعض أنواعها وحكوماتها كالسفسطائية والمثالية (الجمهورية) والمدينة الفاضلة ثم تعرض لبعض أنواع الحكومات وفي الفصل الرابع أنواع الدولة الحديثة ومنها الدولة العلمانية والوطنية وغيرها ثم صنع خاتمة عرض فيها اضمحلال دولة ما بعد الحداثة.

- وتختلف دراستنا عن هذه الدراسة في أمور منها: أنا عرضنا لتطور مفهوم الدولة في الفلسفة الإسلامية وكذلك دولة الخلافة ولم يتعرض لها بحث – حيدر- من قريب أو بعيد وهي لا شك رافد من الروافد الهامة في تطور مفهوم الدولة والذي ثار حوله بعض اللغط والغموض لدى بعض التيارات الحديثة التي تدعي إسلاميتها وإسلامية مفاهيمها ولا يزال أثرها موجودا عند بعض التيارات المتصارعة حتى الآن ويمكننا القول إن دراستنا تختلف عن هذه الدراسة في تركيزها على الدولة الإسلامية كمفهوم فلسفي متجدد بينما اكتفى حيدر بالطرح الغربي.

- والذي يميز دراستنا عن تلك الدراسة إجمالها كثير من التفريعات

١ - محمود حيدر: مفكر وباحث في الفلسفة السياسية – لبنان – المدينة المنورة، ١٤٣٥هـ، ج ٣، ص ٥١٠.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

والتفصيلات والتي في الحقيقة تندرج تحت باب أصل يشملها وهذا ما راعيته وأكدته خلال البحث

- والذي يميز دراستنا كذلك واقعيتها بمعنى سقوطها على معاني المفاهيم المختلفة سقوطا مباشرا بعيدا عن الاصطلاحية المتكلفة ونحت مفاهيم جزئية من مفاهيم كلية عامة.

- الذي يميز دراستنا هو أن دراسة - محمود حيدر- تسير نحو المفهوم الغربي الخالص والذي نتج عن بنية مفاهيمية غربية بخلاف دراستنا التي عرضت لمفهوم الدولة في الفكر الغربي والشرقي والعربي الإسلامي في ترتيب زمني يظهر خلاله فلسفة التطور والتأثير والتأثر. [٢]

- **الشيخ محمود مصطفى المكي** : تطور الفكر الإسلامي حول مفهوم الدولة وطبيعة سلطتها , مجلة العدل – المكتب الفني - السودان , س ١١ , ع ٢٦ , ٢٠٠٩م هذه الدراسة لم يتناول الباحث إلا مفهوم الدولة عند مفكري المسلمين وذكر أثر الفكر الوافد على المسلمين المعاصرين وانعكاساته على مفهوم الدولة وغاب عن الباحث ذلك التطور الحاصل في مفهوم الدولة الذي ناقشناه هاهنا في البحث ويعذر الباحث في ذلك أن البحث حدد نطاقا فكريا معينا إذن بحثه وإن ناقش جزءا من فكرة هذه الدراسة إلا إنه بعيد عنها تناولا وكذلك نتيجة مع بعدها في عناصرها ومكوناتها وحدودها الزمانية والمكانية والفكرية .

- **عدة الشيخ** : تطور الدولة في الإسلام : المفهوم , النشأة , المراحل والتحول , مجلة الدراسات التاريخية , جامعة الجزائر ٢ أبو القاسم سعد الله – كلية العلوم الإنسانية – قسم التاريخ , ٢٠٢٣م مارس , ١٤٤٤هـ , وهذه الدراسة تشبه الدراسة السابقة في منطلقاتها بل في معطياتها والفارق بينها وبين الدراسة السابقة الاهتمام بالجانب التأريخي حيث عرض الباحث في بحثه مراحل تشكل الدولة في الإسلام بالحديث عن دولة الرسول ثم دولة الخلفاء الراشدين وأخيرا دولة

---

٢ - وغياب مفهوم الدولة في الفلسفة الإسلامية عن كثير من الكتابات المعاصرة يحمل بعدا خطيرا يكمن في تقزيم النظرة الفلسفية الاسلامية المتميزة المتفردة , وكذلك يحمل ذلك الرضوخ والانبطاح تحت هيمنة الفكر الغربي مع حالة الاستخذاء مما هو إسلامي سواء الذي تسبب فيه التخلف الذي أصاب العرب والمسلمين عن ركب التقدم أو إبعادا لتلك النظرة المغالية المنحرفة المتسترة بالإسلام مع براءة الإسلام من جريرتها ولاشك أن – الباحث – أراد اقتحام تلك المفاهيم وإبقاءها وسط تلك المنظومات الفكرية المختلفة والحقب التاريخية المتعاقبة وهذا أحسبه إضافة في سبيل وضع قدم بين الأفكار التي يحاول البعض تلميعها أو حتى الانبهار بها .

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

الملوك والسلاطين ثم أثر العصبية ودورها في تحول نظام الحكم في الإسلام بالتخلي عن نظام الشورى في اختيار الحاكم واستبدالها بالعصبية والأخيرة قد تصلح كنوع من التطور في مفهوم الدولة إلا إنه يبعد عن قصدنا في بحثنا الذي يناقش فلسفة الأقوال والمفاهيم وكيف تطورت مع غياب النظرة التحليلية في البحث والذي كان يميل إلى السرد الظاهر للأسباب وما آلت إليه الدول من حيث لا من حيث مفهومها الفكري [٣] .

وأما عن خطة هذه الدراسة فهي تنقسم إلى:

أولا: هذه المقدمة: وفيها بيان أهمية الدراسة وهدفها ومنهجها وتساؤلها ومشكلتها وخطتها.

المبحث الأول: مفهوم الدولة عند المصريين القدماء

المبحث الثاني: مفهوم الدولة في الفلسفة اليونانية.

المبحث الثالث: مفهوم الدولة في الفلسفة الحديثة.

المبحث الرابع: مفهوم الدولة عند فلاسفة الإسلام.

المبحث الخامس: مفهوم الدولة في سياق الخلافة والإمامة.

المبحث السادس: مفهوم الدولة في العصر الحديث.

ثم خاتمة وفيها أهم النتائج.

وأخيرا: قائمة بأهم المصادر والمراجع.

---

٣ - هذه هي الأبحاث والدراسات التي وقعت عليها في بحثي عن الدراسات السابقة والتي توصلت من خلالها أنها تختلف عن بحثي الموسوم (تطور فلسفة مفهوم الدولة دراسة نقدية) وذلك من حيث المنهج والمعطيات وكذلك طبيعة البحث الزمانية والمكانية والأيدلوجية أو الابستمولوجية

المبحث الأول:
مفهوم الدولة عند المصريين القدماء

إن الحقائق والوثائق القديمة تؤكد أن المصري القديم بلغ وعيه السياسي حداً مناسبا من النضج، وكذلك النظام السياسي عرف صورة من صور النضج في التقسيم الإداري فضلًا عن أنه عرف تعدد السلطات والتي تتكون من الملك والوزير وموظفو البلاط والإدارات المحلية، والحكم الذاتي في الريف وهذا التدرج في السلطة التنفيذية كان قائماً على أساس مركزية القرار ولا مركزية التنفيذ [٤] .

وفي مدى هذا الارتباط بين الدولة والسلطة يقول الدكتور مصطفى النشار: « من المعروف في الفكر السياسي سواء أكان علما أم فلسفة أن مفهوم الدولة يرتبط بمفهوم السلطة وكلاهما ينبثق منه وعنه مفهوم الحكومة إذ على الرغم من أن تطور الفكر السياسي قد حمل معه التحيز بين الدولة والحكومة على أساس أن الأولى هي الأعم والأهم باعتبار أن الدولة إشارة الى مجموع المواطنين الذين يقطنون مكانا معينا في ظل نظام سياسي معين بينما الثانية تمثل إحدى سلطات ثلاث في الدولة هي السلطة التنفيذية بينما توجد إلى جوارها سلطة تشريعية وسلطة قضائية [٥] ».

وقد حصل ربط في مصر القديمة بين الحكومة والدولة بوصفها « السلطة "بألف ولام التعريف ومفهوم الدولة في الفكر السياسي القديم لا يختلف عنه في الفكر الحديث، وقد بلغ النظام السياسي في مصر القديمة درجة كبيرة من الوعي بمفهوم الدولة والحكومة وارتباطهما معا والمفهوم المصري القديم تميز بقيامه على « الماعِت « الذي ساهم في مفهومه عن العدالة والنظام في نجاح هذا النظام السياسي» [٦] .

و(ماعِت) هو: اصطلاح يترجم غالبا بالحق والعدالة والحقيقة والعدل

٤- انظر الخطاب السياسي في مصر القديمة: مصطفى النشار، الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٦، ص ص١٩-٢٠.
٥- المرجع السابق، ص٣٧.
٦- المرجع السابق، ص ٣٩.

والنظام، وكان الكل يدور حول الملك رمز العدالة في مصر القديمة، وفي ذلك تقول أنا مانسيني: « تدل آثار الحضارة المصرية القديمة بكل وضوح على مدى اهتمام قدماء المصريين بالعدالة فقد كانت حضارة على النقيض من حضارتنا في هذا الصدد حيث كانت تهتم كثيراً بالعدالة بينما كان اهتمامها نادراً بالقانون

فلم يتركوا لنا تراثا لمجموعة قوانين مثلما فعل الرومان « [٧] .

وتقول أنا مانسيني: « ومن خلال الآثار المتبقية للحضارة المصرية القديمة يمكن القول بأن الحياة المصرية بالكامل تديرها (ماعِت) ففي مجتمع كهذا لا يوجد ثمة خلاف بين العدالة الإلهية والعدالة البشرية، فالإنسان العادل في الحياة الدنيا هو أيضاً الإنسان العادل في الحياة الأخرى، ويكافأ بالحياة الوفيرة ورغد العيش في الحياة الدنيا والآخرة فمصر لكونها هبة النيل تتميز برخاء مادي لم يقف حجر عثرة أمام اندفاعها نحو مجتمع مثالي تسوده العدالة» [٨] .

وتقول أنا مانسيني: « ترجمت (ماعِت) في علم المصريات بالحقيقة والعدالة والنظام والضوء وتغذية الألهة» [٩] .

وبناء مفهوم الدولة في فكر المصري القديم يعكس حالة التزاوج بين القيمي والسلطوي والديني معا في سياق واحد إذ إن تلك الحالة تفرز مفهوما مغايرا في حال تنافرها وتناقضها فهي التي قد تكرس الديكتاتورية والاستبدادية ولذلك نظرة المصري القديم تؤسس لديمقراطية قيمية إن صح التعبير.

وقد يلاحظ أن هذا الربط بين العدالة والمقدس في الفكر المصري القديم يشكل نواة أولى لفكرة الدولة الأخلاقية، التي طورها أفلاطون فيما بعد وهذا يتبدى واضحا في الحديث عن مفهوم الدولة عند أفلاطون فيما يأتي لاحقًا في هذه الدراسة.

٧- أنا ماعت فلسفة العدالة في مصر القديمة: مانسيني، ت/ محمد رفعت عواد وآخرون، الهيئة المصرية، ايداع بدار الكتب ٢٤٠٤٠/٢٠٠٩م، ص٢١.

٨- المرجع السابق، ص٢٣.

٩- المرجع السابق / ص٤٩

المبحث الثاني:
الفلسفة اليونانية ومفهوم الدولة

إن تعلق السياسة بالدولة أمر تحتمه النظرة الفلسفية القديمة فالفلسفة السياسية منذ نشأتها لم تكن منفصلة عن مشكلات الواقع التاريخي ففلسفة أفلاطون وأرسطو مثلا لا يمكن أن تفهم بغير الرجوع الى دولة المدينة والظروف السياسية التي أحاطت بها وفلسفة هيجل لم تكن لتقوم بغير النظر إلى ظروف الدولة البروسية الحديثة , ومن هنا تتصف الفلسفة السياسية الكلاسيكية بأنها إنما نشأت وتطورت من خلال الاتصال بالواقع السياسي , وهذا ما تخالف به الفلسفة السياسية المعاصرة لأنها تستخدم أداة أخرى لتتصل بالواقع , وهذه الأداة هي العلوم المعاصرة أو العلوم الطبيعية , وكذلك عنايتها بالمنهج , وهذا مما استحدثته الفلسفة السياسية المعاصرة ، ويغلب هذا الطابع على اتجاهات الفلسفة الأنجلو – سكسونية , وبخاصة اتجاهات الوضعية المنطقية , وفلاسفة التحليل الذين اقتصروا على مجرد تحليل اللغة التي يستخدمها علماء السياسة لتقويم اللغة وتخليص الفكر من الأوهام بسبب سوء استخدام الألفاظ فكثير من مشكلات الفلسفة التقليدية ترجع الى تأثير اللغة على الفكر [١٠] .

الوقوف عند فلسفة اليونان وفكرهم السياسي يكمن في ذلك النضوج الذي وصلت إليه الحضارة اليونانية في التنظير وقولبة المفاهيم وسبكها في منظومات فكرية وفلسفية منضبطة بخلاف من سبقهم من حضارات شرقية وصينية قديمة أو فارسية أو هندية، ولعل الخلاف سيظل قائماً بين المؤيدين والمعارضين لأصالة الفلسفة اليونانية الغربية عن مثيلاتها الشرقية [١١] .

وفي ذلك يقول يوسف كرم وهو من المؤيدين: « ونحب هنا أن يفهم مرادنا على حقيقته فنحن لا نقصد إلى أن الشعوب الشرقية

١٠- انظر في فلسفة السياسة: أميرة حلمي مطر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ايداع ٢٩٩٨/١٩٧٨م، ص١١

١١- انظر في ذلك الاختلاف حول أصالة الفلسفة اليونانية وكذلك الفكر الشرقي: مدخل الى الفلسفة: الأستاذ الدكتور حسن عبد الحميد، مكتبة سعيد رأفت – جامعة عين شمس، ١٩٧٧م /١٩٧٨م ـ ص٤٤.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

القديمة لم تعرف المسائل الفلسفية الكبرى كلا فإنها عرفتها وأعملت فيها عقولها قبل أن يتفلسف اليونان، ولكنها لم تعالجها بالحد والبرهان كما فعل هؤلاء بل أرسلت القول فيها على نحو ما يرسل الشعراء واستخدمت الشيء الكثير من الخيال فصاغت آراءها في قصص وأساطير وجاءت هذه الآراء أقل نضوجاً وإحكاماً من آراء فلاسفة اليونان « [١٢] .

ولعل فريدريك كوبلستون كان متعصباً شيئا ما حين أزرى بفلسفات سبقت اليونان فقطع بأن الفلسفة خالصة لهم وحدهم فيقول : « فإن الفلسفة اليونانية تظل واحدة من أعظم الانجازات الأوروبية وفضلًا عن ذلك فإذا كان لابد أن تكون لفلسفة اليونان أهمية خاصة عند كل دارس للفلسفة فبسبب تأثيرها في الفكر النظري التالي ولقيمتها الذاتية الخاصة ؛ فإن لها أهمية أعظم عند من يدرس الفلسفة الأسكولائية التي تدين بالشيء الكثير لأفلاطون ولأرسطو كما أن هذه الفلسفة اليونانية هي في الواقع انجاز اليونان الخاص وثمرة قوة ذهنهم ونضارته تماما مثل انجازهم الخاص في الأدب والفن , وينبغي أن لا نسمح لرغبة حميدة جديرة بالثناء تريد منا أن نضع في اعتبارنا إمكان وجود مؤثرات غير يونانية أن تقودنا الى المبالغة في أهمية هذه المؤثرات فتجعلنا نقلل من أصالة العقل اليوناني» [١٣] .

إذن فوقوفنا على فلسفة اليونان ونظرتها للدولة والسياسة هو تأسيس هام في سياق التنظير لتطور ذلك المفهوم، وما أعقبه من تصورات انبنت على ما سبق، وكان للسابق فضل في إرساء معالمه وتشييد قواعده.

فأثينا تلك المدينة اليونانية هي التي أثمرت أصول الفلسفة السياسية الكلاسيكية كما مر والتي تمثل بوضوح مراحل التطور الاجتماعي والسياسي المختلفة فانتقلت من المجتمع البدائي الشيوعي الى المجتمع القبلي الذي تحولت فيه الملكية الجماعية للأرض الى ملكية

١٢- دروس في الفلسفة: يوسف كرم، إبراهيم مدكور: عالم الأدب للترجمة والنشر – القاهرة – بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٦م، ص١٩.

١٣- تاريخ الفلسفة، (اليونان، وروما): فريدريك كوبلستون، ت/ إمام عبدالفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط١ ٢٠٠٢م، ج١، ص ص٣٩-٤٠.

خاصة تمركزت في أيدي رؤساء الأسر الارستقراطية الكبيرة وتحول عدد كبير من السكان إلى رقيق ومعدمين مكبلين بالديون.

وتقول دكتورة أميرة حلمي مطر :» وقد عرف هذا النظام لحكم الارستقراطية في اليونان باسم حكم النبلاء (Eupatrides): وهم الذين كانوا يركزون في أيديهم كل أنواع السلطة فمنهم يصير الحكام التسعة أو الأراكنة Archontes ومنهم الكهنة والقضاة وقادة الجيش polymarchoi , وهذا الحكم هو الذي ظل سائداً إلى عصر صولون المصلح والمشرع السياسي الشهير في القرن السادس ق.م. , وقد استهدف صولون انصاف الطبقات التي بدأ نفوذها يزاحم نفوذ طبقة النبلاء , وهي طبقة التجار والملاحين وأصحاب الصناعات أولئك الذين عظمت قوتهم وتزايدت ثرواتهم مع اتساع تجارة المدن اليونانية ومع نشاط الرحلات الخارجية , وكانت أهم اصطلاحات صولون القانونية هي الغائه نظام

الرق بسبب الديون، وهو الاصلاح الذي يطلق عليه باليونانية اسم ساي سكيتا Sei sachteia « [١٤] .

المطلب الأول مفهوم الدولة في نظر أفلاطون:

كان اليونان منقسمين مدنا مستقلة كل مدينة دولة قائمة برأسها، وقد قبل أفلاطون هذه الحال بل رأى أن المدينة هي المجتمع الطبيعي الذي يكفي حاجاته كلها ويدبر بسهولة، وأن الدول الكبرى كدولة فارس والدولة المقدونية في ذلك العصر مجتمعات غير طبيعية يسوء فيها الحكم حتما، ولم ينصح لليونان بالاتحاد إلا لصد غارات الأعاجم صونا لاستقلالهم، أما فيما دون ذلك فهم أحرار في مدنهم [١٥] .

والمدينة الفاضلة عند أفلاطون تقوم على السياسة وهي عنده العدالة في المدينة كما أن الفضيلة العدالة في الفرد والعدالة عنده

١٤- في الفلسفة السياسية: أميرة حلمي مصر، ص١٥.
١٥- انظر دروس في الفلسفة: يوسف كرم، إبراهيم مدكور، ص٩٤.

قائمة على الطبيعة لا على العرف وغرضه في ذلك أن يبني مدينته على أساس متين من العدالة ثم ينظر في الاجتماع، فيقرر أنه ظاهرة طبيعية ناشئة من تعدد حاجات الفرد وعجزه عن قضائها وحده [١٦].

وفي نظر أفلاطون أن المرء لا يستغني عن إخوانه , وهذا هو منشأ الهيئة الاجتماعية والدولة لابد فيها من أربعة أو خمسة رجال على الأقل يمثلون العناصر الأولى في توزيع الأعمال , ويتسع مجال ذلك كلما نمت الجماعة فتحتوي الحياة في بدء نشأتها على الزراع والبنائين والحاكة والأساكفة يضاف إليهم النجارون والحدادون والرعاة ومع الزمان تنشأ التجارة الخارجية التي تستلزم زيادة المنتوجات في الوطن لدفع بدل الواردات من الخارج وازدياد المنتوجات يستلزم وجود طبقات من الباعة وأصحاب المخازن والصرافين وتحتاج الأمة الى تجار وبحارة ومستخدمين وعمال .

وقد يقضي إلى اشتباكها في الحرب مع جيرانها فتحتاج الدولة الى جيش دائم وطبقة حكام وهؤلاء الحكام يجب أن يكونوا أقوياء سراعاً شجعانا حماسيين، ولكن وُدَعاء وفيهم ميل إلى الفلسفة ويهذبون فينتقى لهم القصص التي تحكى على أسماعهم في حداثتهم [١٧] .

وفي ذات الأمر يرى أفلاطون أن المجتمع طبقي، وإذا كانت المجتمعات الحديثة تحاول التخفيف من صلابة التمييز بين الطبقات إلا إن المجتمع الأفلاطوني يبرر هذا التميز ويؤكده إذ يرى أن الطبيعة نفسها قد فرضت هذا التمايز [١٨] .

وقد قدم افلاطون مثالًا وتصوراً للدولة في جمهوريته، ولم يغب عنه أنه مثل أعلى من الصعب إن لم يكن من المستحيل تحقيقه. إنها الدولة التي تحقق فكرة العدالة في عالم المكان , والزمان , والضرورة ، عالمنا التجريبي المتغير بقدر ما تسمح فكرة المشاركة بتحقيقها على الأرض ولا تتضح فكرته عنها حتى يتضح رأيه في ترتيب الطبقات الثلاث التي تتآلف منها , وهي طبقة الحكام , والحراس , والفلاحين, والصناع

١٦- تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، مكتبة الأسرة، ٢٠١٧م، ص١١٦.
١٧- جمهورية أفلاطون: أفلاطون: ت/ حنا خباز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط١، ٢٠١٧م، ص٥٠.
١٨- في فلسفة السياسة: أميرة حلمي مطر، ص٢١.

والتجار , وتتحقق العدالة إلى أقصى قدر ممكن عندما تقوم كل طبقة بواجبها إذ لو فعلت كل منها ما تريد لسادت الفوضى وعم الاضطراب وإذا أرادت الدولة ككل أن تظل حية فلابد أن تحافظ على هذا الترتيب والعمل بالمبدأ الأسمى ألا وهو أن يقوم كل إنسان بواجبه [١٩] .

ولذلك حينما أراد أن يقدم مثالا لم يقدم الدولة المثالية إنما عرفها بضدها , وهو المقارنة بين الدولة الخيرة وضدها الدولة السيئة , ومن سمات هذه الدولة السيئة أنها ليست كلا متحداً متجانساً , إنما هي شعب ممزق , ودولة بوليسية ينفصل فيها الشعب عن الحكومة فيسيطر البعض ويأمرون ويخضع الآخرون ويطيعون أما الدولة الخيرة , فتكون فيها الطبقات كلًا متحداً متجانساً كيانا حيا عاقلا يعبر عن الحياة المنظمة المتألفة , والدولة السيئة تفتقر إلى الوحدة فهي تضم الفقراء والأغنياء , وهي في حالة حرب دائمة مع نفسها , ولهذا فمن السهل الانتصار عليها وغزوها من الخارج , أما الدولة الخيرة , فمتحدة لأن حكامها الذين يعرفون «مثال» الوحدة يحرصون على تحقيقه فيها .

- والدولة السيئة مريضة تفتقر إلى الصحة لأنها تستنفذ طاقتها في القضايا والمحاكمات بحيث يثري المحامون من وراء النزاعات بين المواطنين أما الدولة الخيرة فتتمتع بالصحة والحكام يعنون بها كما يعني أفضل الأطباء بمريضه.

- والدولة السيئة تتحكم فيها الشهوات فتصبح التجارة والبضائع غايات في ذاتها بينما يقضي الواجب بأن تكون مجرد وسائل، وتتحكم المصالح ورؤوس الأموال في تحديد طابعها فتفقد التوازن بين وظائفها أما الدولة الخيرة فتقوم على الطبقات الثلاث التي تعرف كل منها وظيفتها.

- والدولة السيئة تتيح الفرصة لظهور رذائل لا حصر لها، أما الدولة الخيرة فمن أهم واجباتها أن تحقق الفضائل الأربع الأساسية، وهي الحكمة التي تنشأ عن تدبير حكامها -، والشجاعة التي تتكفل تربية الحراس برعايتها، والعفة التي تأتي من التزامها الحد والاعتدال والعدالة

١٩- المنقذ قراءة لقلب افلاطون: عبد الغفار مكاوي، دار الهلال، العدد٤٤٠، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧، ص٦٦.

التي تترتب على حصول كل مواطن على حقه ما دام يؤدي واجبه [٢٠].
ومفهوم الدولة والعدالة ينسجم ويتداخل عند أفلاطون ليصير في النهاية معناه يكاد يكون متفقاً ألا وهو أن يؤدي كل واحد من المجتمع واجبه المنوط به.

وقد كان أفلاطون مثالياً إلى أبعد حد حتى كاد أن يعمى عن الواقع فيفترض أن حصول أو تحقق هذه الدولة ضئيلًا، ولكنه لا يستبعدها، ولا يقول إنها مستحيلة، بل ربما تتدخل المشيئة الإلهية أو الصدفة الطبية فيولد المنقذ.

وفكرة السياسة والدولة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق عنده , ولم يكن افلاطون بذاك الرجل الذي يقبل بفكرة أن هناك أخلاقاً للفرد وأخلاقاً أخرى للدولة , فالدولة مؤلفة من أفراد , وهي توجد لقيادة الحياة الصالحة وهناك قانون أخلاقي مطلق يحكم جميع البشر وكل الدول أما المنفعة أو المصلحة فلابد أن تنحني وتركع أمام الحق , ولم ينظر أفلاطون للدولة على أنها شخص أو كائن حي يمكن أو ينبغي لها أن تتطور دون قيد أو كابح ودون أدنى اهتمام بالقانون الاخلاقي , وليست هي الحكم في أمر الحق والباطل أو الصواب والخطأ أو مصدر قانونها الأخلاقي والتبرير المطلق لأفعالها كائنة ما كانت , والمضمون الواضح هو أن مبادئ العدالة واحدة , وهي هي نفسها في الفرد والدولة , وإذا عاش الفرد حياته كعضو في الدولة , وإذا كانت العدالة في أحدهما هي نفسها العدالة في الأخر تحددها العدالة المثالية فسوف يتضح عندئذ أنه لا الفرد ولا الدولة يمكن أن يتحرر من القانون الأزلي للعدالة ويتضح الآن تماما أنه ليس كل دستور قائم , ولا كل حكومة موجودة يمكن أن تجسد المبدأ المثالي للعدالة , ولم يكن أفلاطون معنيا بتحديد الدول التجريبية القائمة , ولا الدولة على نحو ما ينبغي أن تكون وهكذا أخذ على عاتقه في محاوره « الجمهورية » أن يكتشف الدولة المثالية النموذج الذي ينبغي أن تحذو حذوه الدول الموجودة بالفعل بقدر المستطاع [٢١].

٢٠- انظر المرجع السابق، ص ٦٧-٧٠.
٢١- انظر تاريخ الفلسفة: فريدريك كوبلستون، ج١، ص٣١٠.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

وإن الحديث عن فلسفة الدولة عن أفلاطون ونحن في القرن الواحد والعشرين ليس تمثلًا لها أو اقتداء بها، ولكن لكي نكون منطقيين في عرض القضايا، ونكون واعين بتاريخ قديم فيه منهجاً قد يكون مخالفا لما نحن عليه الآن فلا نستطيع اجترار ذلك التاريخ لكي يحل في واقعنا بحذافيره أو أن نقيم من خلاله دولة قائمة، وذلك لاختلاف البنى الفكرية، وكذلك الحقب الزمنية التي تختلف في شخوصها وأماكنها وواقعها الاجتماعي والنفسي والاقتصادي.

وفي ذلك يقول دكتور عبد الغفار مكاوي : « يجب أن نتذكر ونحن ندرس أفلاطون أننا نعيش في القرن العشرين ولابد للشارح والمفسر وهو يواجه فلسفة خالدة - أي فلسفة قديمة متجددة - أن يكون على وعي تام بالموقف التاريخي الذي يحيا فيه والظروف الاجتماعية والواقعية التي تحيط به وليس معنى هذا أن نحاول تفسير أفلاطون تفسيراً «عصرياً « بل معناه أن نفهم عصرنا وواقعنا على ضوء فكرة الباقي , وليس من حقنا بطبيعة الحال أن نلوي أعناق نصوصه ونحملها فوق ما تحتمل فبداية البدايات في أي بحث نزيه هو الالتزام بالنص الأصلي ورؤيته في ضوء العوامل التاريخية والفكرية والاجتماعية والنفسية التي يعد ابنا شرعياً لها وشاهداً أميناً عليها بشرط أن نترك أفلاطون نفسه يتكلم فلا نقاطعه ولا نفرض عليه مفاهيمنا الحديثة والمعاصرة بل نتركه يفكر ونحاول التفكير معه بحيث يكون حاضراً معنا نحن الحاضرين في هذا الزمان دون أن نحاول تحديثه بالمعنى الشائع المبتذل أو نستبدل واقعنا الراهن بواقعه التاريخي « [٢٢] .

وهذا في الحقيقة يرجع إلى عدم ملائمة واقع لواقع مغاير مع تغاير في النظرة حول الفرد والمجتمع والطبقية وكذلك فكرة الشيوعية التي مفادها أن يكون الرجال والنساء مشاعاً في كل الأمور في السلم والحرب كلاهما يلتزم ما يلتزم به الآخر فالرجل كالأنثى تماما في أمر الحرب ولا شك أن بعض هذه النظرات تنسجم مع بيئة دون بيئة وفي زمان دون زمان فضلًا عن مواءمتها للواقع الحاضر أو اتفاقها معه.

٢٢- المنقذ عبد الغفار مكاوي، ص٨٣.

وافلاطون نفسه الذي عرض لموجات ثلاث : تجنيد المرأة , وشيوعية النساء والأولاد , وحكومة الفلاسفة وجهد نفسه في اجتيازها وظن بعد كفاحه الحربي أنه أفلح وبلغ الشاطئ الأمين فتكفلت الأيام برده الى الحق وأقنعته بأن مدينته المثلى ممتنعة التحقق لامتناع وجود الفيلسوف الكامل وهو إنما بناها لاعتقاده الذي لا يزال راسخاً في نفسه أن الفيلسوف هو الحاكم الأكمل والملك الحق يرجع لحكمته في كل ظرف ويحكم بما توحي إليه وهذا الحاكم في الحقيقة حديث خرافة وضرب خيال فيجب عنده أن يعدل عن حلمه الجميل وأن يقنع بحكومة أدنى وأقرب الى حال الإنسان [٢٣] .

ونظرة أفلاطون ليست بالسديدة في جميع مضامينها إذا عرضناها على النموذج الإسلامي الذي يخالف رؤيته في كثير من الأصول والفروع وما ذاك إلا لاختلاف المورد والمصدر، ولكن عرض وجهات النظر وكذلك الفكر هو من أبجديات المنهج العلمي لكي تتمايز الأقوال.

المطلب الثاني: مفهوم الدولة في فلسفة أرسطو:

أرسطو يتفق مع أفلاطون ومعظم اليونان في عصره على أن المدنية أرقى الجماعات ولا يرى في الامبراطوريات سوي مجتمعات غير طبيعية تعتمد على الحرب والتجارة وتتخذهما غاية لها فيفسد بهما المجتمع وما الغاية الحقة إلا الفضيلة في السلم والقناعة.

والدولة في نظر أرسطو كأي مجتمع آخر توجد من أجل غاية ما وغاية الدولة في هذه الحالة هي الخير الأقصى للإنسان حياته العقلية والأخلاقية والأسرة هي أول تجمع نشأ أو وجد من أجل الحياة لتزويد البشر بالمتطلبات اليومية.

ولذلك يقول في كتابه « السياسة « وهو الذي عبر فيه عن نظرته للدولة والاجتماع فيقول موضحاً مراده في الدولة: « كل دولة هي بالبديهة اجتماع وكل اجتماع لا يتألف إلا لخير ما دام الناس أيا كانوا لا

٢٣- انظر تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، ص ١٢٤-١٢٥.

يعملون أبداً شيئا إلا وهم يقصدون الى ما يظهر لهم أنه خير فبين إذن أن كل الاجتماعات ترمي الى خير من نوع ما وإن أهم الخيرات كلها يجب أن يكون موضوع أهم الاجتماعات ذلك الذي يشمل الآخر كلها وهذا هو الذي يسمى بالضبط الدولة أو الاجتماع السياسي « [٢٤] .

ويؤكد أرسطو فكرة الرق والعبيد التي عند افلاطون في سياق حكم الطبيعة المميزة والتي تظهر خلالها تلك الفوارق فمن الضروري نشأة الاجتماع الأسري ثم إن الطبيعة تفرز السيد والعبد فيقول أرسطو: « بديا من الضروري اجتماع كائنين لا غنى لأحدهما عن الآخر أريد أن أقول اجتماع الجنين للتناسل ليس في هذا شيء من التحكم ففي الإنسان كما في الحيوانات الآخر وفي النباتات نزعة طبيعية الى أن يخلف بعده موجوداً على صورته.

إنما الطبيعة وهي ترمي إلى البقاء هي التي قد خلقت بعض الكائنات للإمرة وبعضها للطاعة إنما هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر يأمر بوصفه سيدا كما أن الطبيعة هي أيضا التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجسمانية لتنفيذ الأوامر يطيع بوصفه عبدا وبهذا تمتزج منفعة السيد ومنفعة العبد» [٢٥] .

والدولة في نظر أرسطو تأسست على حاجات الأفراد والأسر والقرى التي تأسست تباعاً فالدولة نشأتها طبعٌ لأن غايتها غاية الإنسان ذوي الحاجة والدولة في كل ذلك فوق العائلة أو الفرد.

يقول أرسطو: « ان اجتماع عدة قرى يؤلف دولة تامة يمكن أن يقال عليها إنها بلغت حد كفاية نفسها على الإطلاق بعد أن تولدت من حاجات الحياة واستمدت بقاءها من قدرتها على قضاء تلك الحاجات كلها على هذا، فالدولة تأتي من الطبع شأنها في ذلك شأن الاجتماعات الأولى التي الدولة غايتها الأخيرة لان طبع كل شيء هو بالضبط غايته ..... من هذا تنتج هذه النتيجة البينة: أن الدولة هي من عمل الطبع وأن الانسان بالطبع كائن اجتماعي ..... لا يمكن الشك في أن الدولة هي

٢٤- السياسة: أرسطو طاليس، تعليق: بارتلمي سانتهيلير، ت/ أحمد لطفي السيد، دار القومية للطباعة والنشر، د/ت ـ ص ٩٢.
٢٥- المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤.

بالطبع فوق العائلة وفوق كل فرد لأن الكل هو بالضرورة فوق الجزء ما دام أنه متى فسد الكل فليس بعد من جزء لا أرجل ولا أيدي إلا أن يكون على سبيل المجاز» [٢٦] .

وقد سار ارسطو سير أفلاطون قبلة في مثالية الدولة التي يتحقق فيها العدل.

« فالعدل ضرورة اجتماعية لأن الحق هو قاعدة الاجتماع السياسي وتقرير العادل هو ذلك الذي يرتب الحق « [٢٧] .

وما تعقيبنا على أرسطو إلا كسابقه أفلاطون ولكن توارد هذه الأفكار وتوافقها في بعض الأحيان هو يأتي بتأييد النظرة وتقريبها وهذا يعطي القضايا المناقشة قوة وثباتا إلى حد كبير.

المطلب الثالث: العناصر الضرورية لوجود الدولة لدى أرسطو:

عرضنا من قبل مفهوم الدولة عند أرسطو، ولهذا الفيلسوف رؤية لعناصر الدولة، وهو يراها ستة أشياء فيقول : « لنعدُ الأشياء أعيانها حتى تنير المسألة : فبديا المواد الغذائية ثم الفنون وما يتعلق بها من الأشياء التي لا غنى عنها للحياة التي بها حاجة إلى كثير من الأدوات ثم الأسلحة التي لا غنى للاجتماع عنها لأجل تأييد السلطة العامة في داخله ضد العصاة ولأجل دفع الأعداء من الخارج الذين يمكن أن يهاجموه ورابعاً سعة ما من الثروات سواء للحاجات الداخلية أو لأجل الحروب , وخامساً وكان بوسعي أن أضع هذا في رأس القائمة العبادة الإلهية أو كما يسمونها الكهنوت , وأخيراً وهذا بلا جدال هو الأهم تقرير المرافق العامة والقضاء في الخصومات الفردية تلك هي الأشياء التي لا يسع المدينة مطلقاً أيا كانت أن تستغني عنها ... الدولة تقتضي حتما كل هذه الوظائف المختلفة فيلزم لها إذا زراع ليقوموا بغذاء المواطنين ويلزم لها صناع وجنود وأناس أغنياء وكهنة وقضاة ليقوموا بحاجاتها

٢٦- المصدر السابق، ص٩٥- ٩٦.
٢٧- المصدر السابق، ص ٩٧.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

وبمصالحها» [٢٨].

إذا نخرج مما سبق ذكره أن الدولة عند اليونان كما يصورها اندريه ايمار وجانين أو بواية:

« المدنية هي بالضرورة دولة محصورة الرقعة ولا أهمية لهذه الرقعة في تحديدها فهي في جوهرها المواطنون، الشعب، الـ "لاكيمو يمون « او « الجمهورية الأثينية « أو الجمهورية « اللاكيمديمونية « بل اقتصرت أبداً على « الأثينيين « أو « اللاكيديمونيين « أو « شعب اللاكيديمونيين « فالمفهوم اليوناني إذن إنما يفرض على وحدة المواطنون حدوداً ضيقة بعض الضيق فعدد المواطنين المثالي في نظر فلاسفة القرن الرابع هو عشرة ألاف كحد أعلى [٢٩].

وللمدنية في النظرة اليونانية السيادة المطلقة كدولة « لا تعترف خارجاً عنها بأي مبدأ أعلى يحد من مندوحتها فهي تقر لا بل تعلن ببعض التيه إنها يونانية [٣٠].

وسيادة الدولة في الجانب العملي ينسجم الى حد ما مع الجانب النظري الذي سار إليه افلاطون وأرسطو خاصة في حالة النظام بين الفرد والدولة , فالدولة سيدة داخل أراضيها على الأشياء والكائنات على السواء « وقد تمتعت بهذه السيادة نظرياً منذ البداية , وفي كل مكان وقد استمرت في الواقع بفضل تقدم الديموقراطية في توسيع النطاق العملي لسيادتها فالديمقراطية لا تعني قط تراخي سلطة الدولة ومن خطل الرأي القول بغير ذلك ..... تفرض المدنية – كدولة – باسم « نواميس « و « شرائع « و « عادات « كتابية أو شفهية ، تسمو على الإرادات الفردية أو الحالات النوعية أما القرارات التي تعود الى هذه المبادئ فلا يجوز أن تدعي إلا « مراسيم « وتؤخذ كافة الاحتياطات كي لا تتعارض و الشرائع ..... « [٣١].

٢٨- المصدر السابق، ص ٢٥٨.

٢٩- : تاريخ الحضارات العام: أندريه ايمار، جانين أو بواية « موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزية، ت/ فريدم – داعز، فؤاد ج. أبو ريحان، منشورات عويدات – بيروت – باريس، ط ٢ ١٩٨٦م ، ج١، ص٣٢٣.

٣٠- المرجع السابق، ص٣٢٤

٣١- المرجع السابق، ص ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

المبحث الثالث:
الفلسفة الحديثة ومفهوم الدولة

تمهيد

لاشك أن مفهوم الدولة في الفلسفة الحديثة سيكون مختلفا عنه في الفلسفة القديمة وذلك نظراً للمؤثرات والاكتشافات العلمية الحديثة والتطور العلمي والنظري على حد سواء.

المطلب الأول: باروخ اسبينوزا[٣٢] ومفهوم الدولة:

وقد عالج سبينوزا نظرية الدولة من خلال تعريف حق الفرد أولًا منطلقاً من حق الطبيعة حيث إنها في نظره تتمتع بحق مطلق على كل ما يدخل تحت سيطرتها أي إن حق الطبيعة يمتد بقدر ما تمتد إليه قدرتها وقدرة الطبيعة هي قدرة الله نفسه الذي له حق مطلق على كل شيء والقدرة الطبيعية الشاملة هي مجموعة قدرات الموجودات الطبيعية.

فيقول سبينوزا: « فقد ترتب على ذلك أن يكون لكل موجود طبيعي حق مطلق على كل ما يقع تحت قدرته أي أن حق كل فرد يشمل كل ما يدخل في حدود قدرته الخاصة ولما كان القانون الأعظم للطبيعة هو أن كل شيء يحاول بقدر استطاعته أن يبقى على وضعه وبالنظر إلى نفسه فقط دون اعتبار لأي شيء آخر فينبني على ذلك أن يكون لكل موجود حق مطلق في البقاء على وضعه» [٣٣]

ثم يتدرج حتى يصل إلى أهمية تأسيس الدولة وبيان ملامحها وماهيتها فيتعرض لأهمية الاجتماع الإنساني الذي يُحتاج إليه في حياة الأمن والأمان ويبعدهم عن الشقاء فيقول اسبينوزا:

« ومن ثم يظهر لنا بوضوح تام أنه لكي يعيش الناس في أمان وعلى

٣٢- باروخ اسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) ولد بامستردام من أسرة يهودية وأراد والده أن يصير حاخاما فتلقى اللغة العبرية والتوراة والتلمود والفلسفة اليهودية للعصر الوسيط وصناعة صقل زجاج النظارات لما كان مقرراً أن يتعلم الحاخام صناعة يدوية ولكن داخلة الشك في الدين فعدل عن مشروعه وتحول الى العلوم الإنسانية «
انظر: يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧، ص٩٩.
٣٣- رسالة في اللاهوت والسياسة: إسبينوزا، ت/ حسن حنفي، فؤاد زكريا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥ ، ص٣٦٨.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

أفضل نحو ممكن كان لزاما عليهم أن يسعوا إلى التوحد في نظام واحد وكان من نتيجة ذلك أن الحق الذي كان لدى كل منهم بحكم الطبيعة على الأشياء جميعا أصبح ينتمي إلى الجماعة ولم تعد تتحكم فيه قوته أو شهوته بل قوة الجميع وإرادتهم [٣٤]

ثم يتعرض اسبينوزا لأهمية الدول أن الناس لو انقادوا بسهولة لهداية العقل لعلموا وأدركوا أن تأسيس الدولة يجلب لهم نفعاً كبيراً وأنه أمر ضروري الى أقصى حد وليحافظوا على العقود بدقة لا حد لها وذلك رغبة منهم في الإبقاء على هذا الخير الأسمى الذي هو المحافظة على الدولة مع حفاظهم على ولائهم وهو أقوى دعامة للدولة.

ثم يعرض اسبينوزا للديمقراطية وعلاقتها بمفهوم الدولة وشرطها فيذكره بقوله : « هذا الشرط هو أنه يجب على كل فرد أن يفوض الى المجتمع كل ماله من قدرة بحيث يكون لهذا المجتمع الحق الطبيعي المطلق في كل شيء أي السلطة المطلقة في إعطاء الأوامر التي يتعين على كل فرد أن يطيعها إما بمحض اختياره وإما خوفاً من العقاب الشديد , ويسمى نظام المجتمع الذي يتحقق على هذا النحو بالديمقراطية ، فالديمقراطية هي اتحاد الناس في جماعة لها حق مطلق على كل ما في قدرتها وتترتب على ذلك النتيجة القائلة : إن الحاكم لا يلتزم بأي قانون ويجب على الجميع في كل شيء لأنهم قد فوضوا له بموجب عقد صريح أو ضمني كل قدرة كانت لديهم على المحافظة على أنفسهم أي حقهم الطبيعي كله» [٣٥] .

ويعقب دكتور حسن حنفي على تلك المقالة بقوله: « ليس هناك حد لسلطة الحاكم إلا هذه السلطة نفسها لأنها لا تستطيع أن تغير طبائع الموجودات فسلطة الحاكم مطلقة لأن اسبينوزا لا يعطي أي ضمان دستوري للرعية ولكنها في نفس الوقت محدودة بطبيعة الرعية التي تحافظ على وجودها وإلا لأصبحت مجرد آلة يديرها الحاكم الطاغي كيف يشاء فإذا تحول الحاكم إلى طاغية سلبت عنه سلطته

٣٤- المرجع السابق، ص٣٧٠.
٣٥- المرجع السابق، ص٣٧٢.

لأنه نقض العهد وخرق العقد ولم يلتزم به وهذا مطابق للعقل ولطبيعة الأشياء» [٣٦] .

ولكي يحترز اسبينوزا من سوء فهم مرادة في هذا يقول راداً على افتراض وجود دعوى مثل هذه : « وقد يدعي مدع أننا بهذا المبدأ نحيل الرعايا إلى عبيد إذ إن العبد كما يظن الناس هو من ينفذ أمر إنسان آخر والحر من يفعل ما يشاء غير أن هذا ليس صحيحا صحة مطلقة فالواقع أن الفرد الذي تسيطر عليه شهوته إلى حد أنه لا يستطيع أن يرى أو يفعل ما تتطلبه مصلحته الحقيقية يكون في أحط درجات العبودية أما الحر فهو الذي يختار بمحض إرادته أن يعيش بهداية العقل وحده أما السلوك الذي يتحقق تلبية لأمر أي بالطاعة فمع أنه يقضي على الحرية على نحو ما فإنه لا يجعل من يقوم به عبدا في الحال بل إن الذي يجعله كذلك هو الدافع الموجه للفعل : فإذا كانت غاية الفعل تحقيق مصلحة الأمر بالفعل لا مصلحة الفاعل يكون الفاعل عبداً لا يحقق مصلحته الخاصة أما الدولة أو نظام الحكم الذي لا تؤخذ فيه مصلحة الأمر بوصفها قانوناً أسمى بل تراعي مصلحة الشعب كله فمن الواجب ألا يعد من يطيع الحكم عبداً لا يحقق مصلحته الخاصة بل مواطناً» [٣٧] .

واسبينوزا في هذا كله يريد أن يحقق مبدأ السيادة للدولة وما يؤدي إليها من اجراءات أو نظم للحكم.

ولذلك ذهب اسبينوزا على مسألة قيام الدولة أنها تعتمد على ولاء رعاياها وإن كان تحقيق ذلك ليس من السهولة بمكان فيقول : « يعتمد قيام الدولة أولًا وقبل كل شيء على ولاء الرعايا وعلى فضيلتهم ومثابرتهم على تنفيذ الأوامر كما يشهد العقل والتجربة بوضوح تام , ولكن ليس من السهل بنفس المقدار إدراك الطريقة التي ينبغي بها حكم الرعية لتظل على ولائها وفضيلتها ذلك لأن الحكام والمحكومين على السواء بشر أي كائنات تميل إلى ترك العمل والسعي وراء اللذة ,

---

٣٦- المرجع السابق، ص٣٧٣ الحاشية.
٣٧- المرجع السابق، ص٣٧٤.

وكل من عرف طبائع العامة الشديدة التقلب يكاد ينتابه اليأس التام فيها : إذ لا يحكمها العقل بل تحكمها انفعالات النفس وحدها» [٣٨] .
وما ذكره اسبينوزا نستطيع أن نسميه تأسيسا للديمقراطية الحديثة في بعض معانيها مع اختلاف قد يوجد في الآليات والإجراءات والتي تختلف في تطبيقها دولة عن دولة وإقليم عن آخر.

المطلب الثاني: هيجل ومفهوم الدولة:

يصف هيجل الدولة بقوله: « هي الحقيقة الفعلية المفكرة الموضوعية إنها الروح الأخلاقية بوصفها إرادة واضحة لذاتها تدرك ذاتها وتحقق ذاتها بقدر هذا الإدراك، والدولة توجد مباشرة في العادات الأخلاقية، ومن خلال وعي الفرد بذاته ومعرفته وفعله كذلك يكون للفرد حريته عندما يرتبط بماهيته بوصفه غاية له ونهاية لنشاطه ..... إن أعلى واجبات الإنسان هي أن يصير فرداً في دولة» [٣٩] .
وفي كتابه أصول فلسفة الحق أو « موجز لعلم السياسة والقانون الدولي « وهو آخر كتبه يقسم الحياة الأخلاقية على النحو التالي:

أ الروح الطبيعي، (الأسرة).
ب روح منقسمة وظاهرية، (المجتمع المدني).
ج الدولة بوصفها حرية، حرية كلية وموضوعية حتى في وجودها الذاتي الحر للإرادة الجزئية هذا الروح العضوي والفعل:

1. لشعب أو لأمة من الأمم.
2. تتكشف وتتحقق من خلال العلاقة المتبادلة للأرواح القومية الجزئية.
3. تتكشف وتتحقق من خلال مسار تاريخ العالم بوصفها الروح الكلي للعالم الذي يعتبر حقه أسمى الحقوق [٤٠] .

٣٨- المرجع السابق، ص ص٣٨٥ -٣٨٦.
٣٩- انظر في فلسفة السياسة: أميرة حلمي مطر، ص ١٤٦.
٤٠- أصول فلسفة الحق: هيجل، ت/ إمام عبد الفتاح إمام، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ط٣، ٢٠٠٧م، ص١٤٠.

المبحث الرابع:
مفهوم الدولة عند فلاسفة الإسلام

جاء الإسلام بطبيعة مختلفة عما سبقه من أفكار ودول وتجمعات بشرية إذا إنه أُسِس من أول يوم للوحدة وعدم التناحر فألف بين القلوب ونزع الشتات والتفرق من دنيا الناس وأقام هذا كله من خلال بنية تشريعية عمادها الكتاب والسنة النبوية الشارحة والمفسرة له. فأعمل علماء الملة أدوات الاجتهاد والقياس والعقل السديد في استنباط ما يكون متوافقا مع أصول الدين وشرائعه وما لا يخالفها لصلاح أمر الدين والدنيا معا بحيث لا يظهر تنافر ولا شقاق بين ما هو شرعي وما هو دنيوي مصلحي فظهر معنى للدولة بما قد يخالف ما سبق من فلسفة اليونان أو ما تعلق بها من فلسفة حديثة ومعاصرة.

المطلب الأول: مفهوم الدولة عند الفارابي:

من فلاسفة الإسلام الذين كان لهم نتاج في ذلك الأمر ومن نأخذه أنموذجا في هذه الدراسة : هو الفارابي الفيلسوف المسلم الذي ناقش حاجة الإنسان للاجتماع والتعاون وجعله السبيل لبلوغ أفضل كمالاته فهناك أشياء لا يمكنه أن يقوم بها وحده فيستلزم ذلك جماعة متعاونة , ومن هذه الاجتماعات ما هي كاملة ومنها غير كاملة والكاملة ثلاث عظمى ووسطى وصغرى فالعظمى اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من سكن أمة وغير الكاملة اجتماع أهل القرية ويقول الفارابي : « فالخير الأفضل والكمال إنما ينالا أولًا بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص منه» [٤١] .

والدولة عند الفارابي نظام كلي والمواطنون فيه أجزاء ذلك النظام الكلي الذي يستمدون منه وجودهم ولا قوام لهم بدونه ولقد كان أمراً

٤١- كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي، ت/ ألبير نصري نادي، دار المشرق – المطبعة الكاثوليكية – بيروت – لبنان، ط ٢، ١٩٦٨م، ص١١٨.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

محتماً أن ينتهي إلى اتخاذ دولة السلطان المطلق المتمثل في قوة مركزية مثلا أعلى للتنظيم السياسي ومن ثم فقد طبق في نظرته إلى الدولة منهجا أكد أولًا عضويتها بأن شبه - مثل أفلاطون - الدولة الكاملة بالبدن التام الصحيح [٤٢].

ولذلك قال الفارابي واصفاً الدولة:

« والمدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان وعلى حفظها عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس .... غير أن أعضاء البدن طبيعية والهيئات التي لها قوى طبيعية وأجزاء المدينة وإن كانوا طبيعيين فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية بل إرادية على أن أجزاء المدينة مفطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح بها إنسان لإنسان لشيء دون شيء غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها بل بالملكات الإرادية التي تحصل لها وهي الصناعات وما شاكلها، والقوى التي هي أعضاء البدن بالطبع فإن نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيأت إدارية» [٤٣].

● المدينة الفاضلة بين الفكر اليوناني والفكر الإسلامي:

إن ثمة فروقات تظهر كما ألمحنا قبل ذلك حول مدى التطور الحاصل بين الدول في المفهوم وكذلك طريقة الفكر وإن المدينة الفاضلة التي كان يطمح لها اليونان تفارق تلك المدينة الفاضلة التي كان يبتغيها فلاسفة المسلمين ومنهم الفارابي وابن رشد وفي ذلك يقول دكتور عبد القادر عرفة:

« المدينة الفاضلة في الفكر الإسلامي ليس لها علاقة بالفكر اليوناني في بدايتها بل لها علاقة وطيدة بدولة المدينة التي أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم فمدينة النبي لحد الساعة تعتبر المدينة النموذجية التي ينبغي إعادة بناءها من جديد لكي يجد الإنسان سعادته وحريته

٤٢- الفارابي ونظم الحكم: محمد عبد المعز نصر، ضمن الكتاب التذكاري « أبو النصر الفارابي في الذكرى الألفية لوفاته ٩٥٠م، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٢٧.

٤٣- آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي، ص ص ١١٨ -١١٩.

وليظهر الإنسان بكرامته وانسانيته لقد اشار بهذه المدينة كثير من فلاسفة الإسلام واعتبروها النموذج الأمثل للحكم الفاضل كالفارابي وابن رشد ....» [٤٤]

ويقول دكتور عبد القادر عرفه: « وتبقى دولة المدينة معلم الفضيلة التي تمشي على الأرض وتمارس أمر السماء وتبدع من تجاربه الخاصة ما يمكنها من التمكين للإنسان كخليفة» [٤٥] .

المبحث الخامس:
مفهوم الدولة في الفكر الإسلامي

والمعنى اللغوي للدولة: « دول - (الدولة) في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى يقال كانت لنا عليهم الدولة والجمع (الدول) بكسر الدال والدولة بالضم في المال يقال صار الفيء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع (دُولات) و(دُول).....» [٤٦] .

فالدولة هاهنا بمعنى التداول والدولة حددت بلفظها في اللغتين الانجليزية والفرنسية فالدولة في اللغة الانجليزية State تعني « الحالة « أو « الأمة» كما تعني الدولة (Etat) في اللغة الفرنسية « حالة « وترد كلمة الدولة في معاجم اللغة العربية الحديثة متأثرة في ذلك بطبيعة الحال بالمعاجم اللغوية الأجنبية وبظروف العصر وما فرضته من ألفاظ لغوية لم تكن تستخدم في حياة العرب قبل هذا العصر [٤٧]

وفي المعجم الوسيط: « الدولة: الاستيلاء والغلبة - الشيء المتداول - ومجموع كبير من الأفراد يقطن بصفة دائمة إقليما معينا ويتمتع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي وبالاستقلال السياسي» [٤٨] .

يعرف الدكتور محمد البهي الدولة بقوله : « الدولة هي التنظيم الذي

٤٤- المدينة والسياسة: عبد القادر عرفة، دراسة في (الضروري في السياسة « لابن رشد، مركز الكتاب للنشر ط١ ٢٠٠٦م، (اتحاد الجمعيات الفلسفية العربية) ، ص١١٨.
٤٥- المرجع السابق، ص ١٢٢.
٤٦- مختار الصحاح: الرازي، اخراج دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، مكتبة لبنان - بيروت، ١٩٨٦، ص٩٠.
٤٧- الدولة الإسلامية والدولة المعاصرة: عبد الغني عبود، دار الفكر العربي ، ط١ ، ١٩٨١م ، ص١٨.
٤٨- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط٤ ، ٢٠٠٤ ، ص٣٠٤

يكفل لمجتمع ما ممارسة علاقة أفراده بعضهم ببعض في دائرة الأهداف والمبادئ التي ارتضاها هؤلاء الأفراد عند لقاء بعضهم مع بعض وعند التصميم على المشاركة في قيام مجتمع خاص بهم يحرص على تحقيق الغاية منه سواء في تمكين الأفراد من مباشرة ما ارتضوه من مبادئ أو في حماية هذا الذي ارتضوه من المبادئ من الاعتداء عليه من أجنبي عنهم ومن أجل تمكين أفراده من مباشرة مبادئه وتحقيق أهدافه كانت ضرورة توفير الحرية الفردية وفي الوقت ذاته كانت ضرورة المحافظة على الاستقرار في الداخل ومن أجل حماية المبادئ والأهداف من اعتداء أجنبي عليها كانت ضرورة المحافظة على سلامة المجتمع من الخارج» [٤٩] . والدولة في الإسلام إنسانية وعالمية تمحي فوارق المال والملك والعنصر واللغة والقبلية وتستهدف فقط الاعتبار الإنساني والمستوى الإنساني الفاضل الذي خططت رسالة الله حدوده ومعالمه ولا يتميز فيها فرد عن فرد آخر إلا بدرجته في هذا المستوي « إن أكرمكم عند الله أتقاكم « (الحجرات/١٣) [٥٠] .

وعالمية الدولة في الإسلام وانسانيتها لا تقضي بوجوب حكومة موحدة في العالم ولكنها تقضي فقط بأن يكون المجتمع الإسلامي في أي مكان وفي أي وقت مفتوحاً للناس جميعاً وأن يكون نظام حكمه إنسانياً فوق كل الفوارق والحواجز التي كانت قائمة في عصور الجاهلية التي سادت فيها المادية في تصنيف الأفراد وجعلتهم طبقات متفاوتة في المنازل والدرجات [٥١] .

وهذه سمات عامة للدولة في الإسلام والتي استقاها علماءنا من وحي الشريعة ونصوص الكتاب والسنة والذي أتت الإشارة فيها الى ذلك مع ما فيها من الخير الذي أراده الله تعالى بالناس وكذلك حكمته سبحانه البالغة وعلمه جل وعز بنوازغ البشر وطبائعهم فتاتي هذه المبادئ العامة مصورة وكاشفة لما عليه الإنسان.

والدولة في الإسلام دولة فكرية قامت على أساس العقيدة الإسلامية

٤٩- :. الدين والدولة (من توجيه القرآن الكريم : محمد البهي ، مكتبة وهبه ، ط ٢ ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م ، ص٣٩٥

٥٠- .انظر المرجع السابق ، ص٤٠١.

٥١- انظر المرجع السابق ، ص ٤٠٢.

وقانونها هو ما قام على هذه العقيدة أو انبثق عنها من نظم وأفكار وأحكام فهي إذن ليست دولة اقليمية محدودة بالحدود الأرضية ولا هي دولة عنصرية محدودة بحدود الجنس المعين وإنما هي دولة فكرية تؤهلها عقيدتها أن تكون دولة عالمية تضم مختلف الأجناس والاقوام إذ باستطاعة أي إنسان أن يعتنق عقيدتها فيكون من رعاياها وحملة فكرتها وجنسيتها ومن يرفض ذلك فإنه يستطيع العيش في حمايتها وفي ظل نظامها القانوني ويحمل جنسيتها ويبقى على عقيدته دون مضايقة ولا إكراه [٥٢].

وأهداف هذه الدولة في الإسلام مشتقة من طبيعتها فلا تقف أهدافها عند توفير العيش الكريم لرعاياها وتحقيق الأمن والطمأنينة لهم ورد الاعتداء الخارجي عنهم وإنما أهدافها إلى أبعد من ذلك فهي تهدف إلى إسعاد البشر كلهم بحمل الإسلام إليهم لأنه دعوة عالمية قال تعالى :» قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا « (الأعراف ١٥٨/) وما دام الإسلام دعوة عالمية وهو نعمة الله للبشر فمن حق البشر جميعاً أن تصل إليهم نعمة ربهم حتى يحققوا السعادة [٥٣].

والذي يظهر من تشريعات الإسلام أن المصالح الإنسانية المعتبرة قد ارتبطت بها الأحكام الشرعية فقد ابتنت الأحكام الشرعية على المصلحة أي مصالح البشر فهناك بعض الأحكام اختلفت لأجل المصلحة والقول في المصلحة ميدان كبير أدلي فيه علماء الإسلام بدلوهم [٥٤].

المطلب الأول : حالة الدولة عند العرب قبل بعثة الرسول عليه السلام :

إن النظر لحالة العرب قبل بعثة الرسول عليه السلام يضع أيدينا على طبيعة الاختلاف الحاصل بين حالتين حالة التشرذم والتباعد تمثل في

٥٢- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية : عبد الكريم زيدان : ، مؤسسة الرسالة ناشرون – بيروت – لبنان ، ط١ ١٤٣٣هـ/٢٠١٢ ، ص٤٣٦.
٥٣- انظر المرجع السابق ، ص٤٣٦.
٥٤- انظر المدخل للفقه الإسلامي (تاريخه ومصادره ونظرياته العامة) : محمد سلام مدكور : دار النهضة العربية ،ط ٢ ، ١٣٨٣هـ /١٩٦٣م ، ص ص٢٥٤ -٢٧٣.

العرب قبل الإسلام وحالة الائتلاف والانسجام بعد مجيء الإسلام فالعرب قبل بعث النبي عليه السلام كانوا أمة فاقدة النظام تسودها الهمجية ويخيم عليها ظلال الجهل لا يربطهم دين ولا يخضعون لقانون ومن أثر ذلك تشعب عقائدهم الباطلة ولم يبق فيهم من القانون شيء سوى نزر يسير من الضوابط التي يفصلون بها في خصوماتهم والعادات المستحسنة والنزعات الطيبة الكريمة سرى إليهم من شريعة أبيهم اسماعيل أو من اليهود والنصارى بينهم أو من يحاورونهم [٥٥] .

المطلب الثاني : دولة الإسلام في المدينة :

إن العصر النبوي لم ينته حتى تكونت نظريات سياسية وتكامل وجودها , وهناك عوامل أساسية لابد منها لإثارة هذا التفكير النظري , وأهم هذه العوامل ثلاثة أولها : طبيعة النظام الاجتماعي الذي أقامه الرسول عليه السلام , وثانيها إقرار مبدأ حرية التفكير للفرد , وثالثها تفويض الأمر للأمة فيما يتعلق بتفاصيل هذا النظام وطرق إدارته وتحديد بعض نواحيه الشكلية .

وفي ذلك يقول دكتور محمد ممدوح العربي : « أما من حيث النظام الذي أقامه الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه في المدينة – إذا نظر إليه من وجهة مظهره العملي وقيس بمقاييس السياسة في العصر الحديث – يمكن أن يوصف بأنه « سياسي» بكل ما تؤديه هاته الكلمة من معنى وهذا لا يمنع أن يوصف في نفس الوقت بأنه « ديني « إذا كانت وجهة الاعتبار هي النظر إلى أهدافه ودوافعه والأساس المعنوي الذي يرتكز عليه [٥٦]

ثم تظهر معالم الدولة في أول مجتمع في المدينة بعد بيعتي العقبة الأولى والثانية وما تلاها من هجرة الصحابة من مكة إلى المدينة وذلك

٥٥- انظر: تاريخ الفقه الاسلامي : محمد علي السايس ، ت/ احمد منصور سبالك ، دار الرضا – ط١ ١٤٢٣هـ ، ايداع ٢٠٠٢/١٨٦١٥م ، ص٢٥.
٥٦- دولة الرسول في المدينة : محمد ممدوح العربي : ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م ، ص ٥٢.

بتوفر عنصري التقيد الإقليمي والغاية المشتركة ثم نرى العنصر الثالث وهو السلطة السياسية متمثلة في شخص الرسول عليه السلام عقب هجرته إلى المدينة يحقق قيام أي مجتمع سياسي وأصبح بناء أول دولة اسلامية ممكنا لتوفر العناصر الثلاثة وهي :

1. **التقيد الإقليمي** : ومكانة المدينة يضمن للمسلمين الاستقرار والأمان .
2. **الغاية المشتركة** : أو ما يسمى بحالة « الضمير الاجتماعي » التي انبثقت من الالتقاء الفكري والقبلي لكي تحدد هوية هذا المجتمع الجديد وهو المجتمع الإسلامي .
3. **السلطة السياسية** : ومتمثلة في الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تولى زمام السلطة السياسية في المدينة [٥٧] .

المطلب الثالث : الهيكل التنظيمي العام لدولة المدينة :

يصور دكتور محمد سلام مدكور حالة التنظيم السياسي للدولة في المدينة بقوله : « وصدع الرسول عليه السلام بأمر ربه فبلغ دعوة الله ونصب نفسه في المدينة ليفصل في الخصومات وليقوم بدور الافتاء بجانب ما يبلغه للناس من تشريع الأحكام الموحى بها والسهر على تنفيذ أحكام الإسلام فهو عليه السلام قد تجمعت في يده هذه السلطات وكانت لم تفصل ومن غيره في حضرته أحق بهذا منه فرفعت إليه القضايا فقضى فيها كما أفتى فيما استفتى فيه وكان يحكم في الحقوق بالظاهر وباليمين عند عدم البينة وكان قضاؤه اجتهاداً لا وحيا» [٥٨] .

وقد قام الرسول عليه السلام بدوره في توحيد كلمة العرب وقد ساعده في ذلك تلك الديمقراطية التي جاء بها الإسلام والتي تلاشت أمامها الفروق الجنسية التي طالما فرقت شمل العرب .

٥٧- انظر المرجع السابق ، ص ١٥٥.
٥٨- المدخل للفقه الإسلامي : محمد سلام مدكور : ، ص٣٣١.

ولم تكن حكومة النبي دينية فحسب بل حكومة سياسية فتجمعت في يده السلطتان الدينية والسياسية معاً وقد وضع الرسول عليه السلام النواة الأولى للنظام الإداري في الإسلام وذلك عندما بعث إلى القبائل المختلفة التي دخلت الإسلام من يقرئها القرآن ولما هاجر إلى المدينة وضع نظام الدولة الإسلامية وكان ينيب عنه عمالًا على القبائل وعلى المدن وكان على كل مدينة كبيرة بالحجاز واليمن وكذا على كل قبيلة كبيرة عامل من قبله عليه السلام.

-إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان الحاكم الفعلي في دولة المدنية يجمع كلا السلطتين الدينية والسياسية فهو رأس الحكومة يعاونه عدد من الصحابة عرفوا بكتاب النبي ويتراوح عددهم ما بين أربعة عشر كاتبا وثمانية وأربعين كاتبا .

ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد كون له فريقا من الكتاب يعاونوه في تنظيم شئون المدينة يمثلون الوظائف القيادية في عهده عليه السلام مستكملا الهيكل التنظيمي العام لدولة المدينة في الصورة الآتية :

1. **كتاب الوحي** : وهم المتخصصون في كتابة القرآن الكريم .
2. **كتاب الدولة** : وهم الفئة التي تخصصت في كتابة الأمور المتعلقة بدولة المدينة وشئونها.
3. **الوزير** : وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بمثابة الوزيرين للرسول عليه السلام .
4. **كاتب الملوك والمترجم** : وكان يتولى أمر الكتابة الى الملوك زيد بن ثابت كما كان يقوم بالترجمة أيضا حيث كان يعرف الفارسية والقبطية والحبشية والسريانية وتعلم أخيراً العبرية كما كان يتولى كتابة الرسائل للملوك وغيرهم عبد الله بن الأرقم .

- كاتب المعاهدات : هو علي بن أبي طالب .
- كاتب حوائج النبي : المغيرة بن شعبه .
- كاتب المداينات وسائر العقود بين الناس : ويقوم بها عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة والحصين بن نمير وهذا العمل بمثابة تسجيل

وتوثيق العقود في الشهر العقاري في عصرنا الحاضر.

- صاحب التوقيعات الى الملوك : هو شرحبيل بن حسنة الذي كان يكتب التوقيعات الى الملوك .
- نائب الكاتب : إذا غاب أحد كتاب الدولة خلفه في الكتابة حنظلة الكاتب لأنه خليفة كل كاتب ثم كاتب المغانم وكاتب خرص النخل وكاتب الصدقات وكاتب الجزية وكاتب العشار ثم قادة الجيش وسفراء النبي وعمال الأمصار والحسبة والشرطة الى غير ذلك من أسس تنظيمية للدولة وهيكلها ثم ما يلي ذلك من سياسات داخلية وخارجية تعرض لها كتاب التاريخ والسير [٥٩] .

المطلب الرابع : السياسة الشرعية ومفهوم الدولة :

وبعد عرضنا لدولة المدينة ومفهوم الدولة في الإسلام يأخذنا هذا الى الحديث عن السياسة الشرعية , ومتعلق السياسة بمفهوم المدينة والدولة مرتبط ارتباطا وثيقا من قديم ولكن الأمر يختلف بحسبان البيئة وكذلك المعتقد فضلا عن الأشخاص والأفكار كما مر ذكر ذلك .

فالسياسة الشرعية : « هي الأحكام التي تنظم بها مرافق الدولة وتدبر بها شئون الأمة مع مراعاة أن تكون متفقة مع روح الشريعة نازلة على أصولها الكلية محققة أغراضها الاجتماعية ولو لم يدل عليها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب أو السنة وموضوعها هو أعمال المكلفين وشئونهم من حيث تدبيرها والتصرف فيها بما يتفق مع روح الشريعة ويحقق أغراضها مما لا نجد له دليلا خاصاً يدل عليه وكان مع ذلك غير مخالف لنص يثبت حكماً عاما دائماً» [٦٠] .

وفائدة السياسة الشرعية هاهنا مسايرة التطورات الاجتماعية والقدرة على الوفاء بمطالب الحياة وتحقيق مصالح الأمة المتجددة ثم من ضرورياتها لزوم الاحتياط وقصد العدالة في تطبيق أحكامها حتى لا

٥٩- انظر : دولة الرسول في المدينة : محمد ممدوح العربي : ، ص ١٨٥ وما بعده .

٦٠- الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي : وهبه الزحيلي : ، دار المكتبي – سورية – دمشق ، ط١ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص١٠.

تتعثر في سيرها ولا تتأثر في مهب الريح [٦١] .
وللسياسة الشرعية معنيان لدى الفقهاء وغيرهم من حيث مناط عملها والقائم به .
فالفقهاء أرادوا بها التوسعة على ولاة الأمور في أن يعملوا ما تقضي به المصلحة مما لا يخالف أصول الدين وإن لم يقم عليه دليل خاص .
وغير الفقهاء أرادوا بها معناها اللغوي الذي يتبادر من اللفظ ويتصل باستعماله اللغوي وهو تدبير مصالح العباد على وفق الشرع [٦٢] .
وقد اختلف الفقهاء في مفهوم أو مصطلح السياسة الشرعية وذلك تبعاً لاختلافهم في مجالها وموارد تطبيقها , فمنهم من رأى أنها شاملة لجميع مناحي الحياة ومنهم من قصرها على أفعال ولي الأمر ومن في حكمه فيما يتعلق بتدبير شئون الرعية وإصلاح أمرها كما نظر بعضهم إلى الناحية النظرية وأنها أحكام أو أنظمة [٦٣] .
ولأجل هذا نعلم أن الدولة في الإسلام لا تعي بالبحوث الفرضية والخيالية وإنما جاء الإسلام ليقرر أحكامها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفق ما يعلمه الخالق سبحانه من مصالح الناس وما ينفعهم وما يضرهم فهناك غاية محمودة للدولة في الاسلام تقوم دعائمها على الأخلاق وارتباط الناس بخالقهم.
يقول الشيخ شلتوت : « ومعنى هذا أن الإسلام يقيم تنظيمه لجميع أمور البشر على أساس إشعار الناس بشدة ارتباطهم بخالقهم وتعريفهم بالخير في العبادة والمعاملة وتوجيههم إليه وخوفهم من الشر في كل معانيه وبعبارة أخرى أن الإسلام يقيم جميع النظم البشرية العامة على أساس أخلاقي يلحظه العلماء دائما في جميع مقررات الإسلام في كل نواحي الحياة الإنسانية ومن ثم كانت الدولة في نظر الإسلام دولة أخلاقية لها دستورها المكتوب القرآن الدائم الخالد ولها حدودها (بلاد المسلمين أدوار الإسلام) ولها جيشها من كل مؤمن قادر على حمل السلاح ولها سياستها الخارجية المرسومة القائمة على السلام» [٦٤] .

٦١- المرجع السابق ، ص١٠.
٦٢- السياسة الجنائية في الشريعة الإسلامية : أحمد فتحي بهنسي : ، دار الشروق – القاهرة – بيروت ،ط ٢ ،١٤٠٩هـ/١٩٨٨ ، ص٢٥.

المبحث السادس:
مفهوم الدولة في سياق الخلافة

إن مفهوم الخلافة وعلاقته بمفهوم الدولة في تطورها في أمة الإسلام يعكس حالة فكرة الأمة الواحدة والدولة الواحدة التي تسودها أحكام الشريعة في داخلها والرغبة القوية في تبليغ رسالة الإسلام خارج حدودها وقد تمكنت من النخبة المسلمة عندما واجهت الحادثة الأليمة بوفاة الرسول عليه السلام فكان لابد من إيجاد الحالة المكملة أو السياسة المتممة .

لهذا يقول دكتور أكرم ضياء العربي : « ورغم الذهول الذي أصاب النخبة وعامة المسلمين فإن أهمية إقامة السلطة في الإسلام جعلتهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشريف إلى مثواه , وقد يقف خلف هذا التحرك السريع إدراك النخبة بخطورة الأوضاع المحيطة بالكيان الإسلامي الذي مضى عليه عقد واحد من السنين تأسست فيه الدولة واتسعت رقعتها وكسبت أنصاراً لها داخل المدن الحجازية الثلاث خاصة في حين بقيت القبائل الكبيرة في أعدادها والمنتشرة في البوادي والصحراء تحيط بالمراكز الإسلامية من كل مكان , وكانت الضوابط الشرعية لاختيار المسؤول الأول للدولة تنحصر في قرشيته ومكانته التي يحددها قدمه في الإسلام وخدمته للدعوة وللدولة ومنزلته لدى النبي صلى الله عليه وسلم وإمكان إجماع الأمة أو أكثرها على شرعية تولية لرئاسة الدولة وخلافة النبوة [٦٥] .

٦٣- انظر في اختلاف الفقهاء عبد الفتاح عمرو : السياسة الشرعية في الأحوال الشخصية ، دار النفائس – الأردن ، ط١ ،١٤١٨هـ/١٩٩٨ ، ص١٧ وما بعدها.
- وانظر في مصطلح السياسة واختلاف الفقهاء والحكماء فيه .
- الدين والسياسة (تأصيل ورد شبهات) : يوسف القرضاوي : المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث ، دبلن ٢٠٠٧م ، ص ص١٩-٤٥
٦٤- من توجيهات الإسلام : محمود شلتوت : ، دار الشروق ، ط٨ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م ، ص٤٤٧.
٦٥- عصر الخلافة الراشدة (محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين) : أكرم ضياء العمري : مكتبة العبيكان ، د/ت ، ص٤٦, وانظر في أحداث اجتماع السقيفة بعد موت الرسول.
- نظام الخلافة في الفكر الإسلامي : مصطفى حلمي : ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ٢٠٠٤م /١٤٢٥هـ ، ص٣٦ وما بعدها .

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

المطلب الأول : مفهوم الخلافة والإمامة

هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم , وعرفت بأنها خلافة الرسول في إقامة الدين , وحفظ حوزة الملة بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة , ويعرفها الماوردي في الأحكام السلطانية تحت مفهوم الإمامة فيقول : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأهم واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع» [٦٦] .

ويرى غالبية المسلمين أن لفظ الإمامة تعني الخلافة , فالإمامة والخلافة مترادفان في الإسلام ويفسر ابن خلدون هذا لما بين السياسة والدين في الإسلام من صلة , فالخلافة خاصة بالسياسة والإمامة خاصة بالدين , ولكن في صدر الإسلام كانا مترادفين فالسياسة وقتها كانت تحركها النوازع الدينية , والخليفة كما يباشر مهام سياسية فهو يباشر أيضا مهام دينية , وقد أطلق متكلمو أهل السنة لفظ الإمام على الخليفة باعتباره صاحب الإمامة العظمى (الخلافة) وصاحب الإمامة الصغرى (إمامة الصلاة) [٦٧] .

ولم يخرج ابن خلدون في نظرته للإمامة من الإطار العام الذي وضعه أهل السنة فاعتبر المسألة من فروع الدين مناهضاً لفكرة الامامية والتي زعموا أنها ركن من أركان الدين , وقد عرفها المناوي – أي الإمامة – بقوله : « اعلم أن الإمامة رئاسة تامة ورعاية عامة على الخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا متضمنة حفظ الحوزة وحماية البيضة وإقامة الدعوة بالحجة والسيف وكف الجنف والحيف والانتصاف للمظلوم من الظالمين واستيفاء الحقوق من الممتنعين التي اعرفها إمام الحرمين [٦٨] .

٦٦- الأحكام السلطانية والولايات الدينية : الماوردي ، ت/ خالد عبد اللطيف السبع العليمي ، دار الكتاب العربي ، د/ت ، ص٢٩.
٦٧- الفكر الكلامي عند ابن خلدون : منى أحمد أبو زيد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص١٥٨.
٦٨- الجواهر المضيئة في بيان الآداب السلطانية : المناوي ، ت/ عبد الله ابراهيم الناصر ، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود ، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م، ص٨٥ .
انظر :غياث الأمم في التياث الظلم : الجويني ، ت/ مصطفى حلمي ، فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة – الاسكندرية ، رقم ايداع /٤٦٦٨ سنة ١٩٧٩م ، ص١٥.

وإذا كنا نعرض هاهنا للخلافة في مفهوم الدولة فهي بمثابة تطور في النظام السياسي في الإسلام فقد تطورت نظم الحكم والتشريع في الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التي دخلها الاسلام ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية .

والخلافة نظام مستحدث يختلف في أصوله وخصائصه ووظائفه عن غيره من أنظمة الحكم الأخرى التي عرفتها شعوب الشرق الأدنى : وهي رياسة عامة في أمور الدنيا والخليفة ينصبه المسلمون ببيعه حرة من أهل الحل والعقد بالرضى والاختيار جامعاً لشروط انعقاد الخلافة التي تتلخص في العلم والعدالة والكفاية وهي أن يكون الخليفة قادراً على إقامة الحدود بصيراً بالحروب والسياسة وأن يكون الخليفة مسلما حراً ذكراً بالغاً عاقلا سالم الحواس والأعضاء واشترط بعضهم النسب القرشي وللأمة حقوق على الخليفة أو الإمام تتمثل في حفظ الدين وإقامة الحدود الشرعية ورعاية الأموال والممتلكات العامة للدولة ورعاية الوظيفة العامة في الدولة بوضع الشخص المناسب لكل وظيفة وكذلك تحصين الثغور وحماية الحدود والدفاع عن الدولة وللإمام حق على الأمة تتلخص في السمع والطاعة والنصرة والنصيحة والمشورة [٦٩] .

المطلب الثاني : النظريات الكلامية في الإمامة والخلافة :

والمقصود بالنظريات الكلامية تلك التي وضعها علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة ودخل معهم كذلك الشيعة والخوارج وغيرهم مع اختلافات حصلت في الرؤية وتقرير المسائل فهم وإن اتفقوا في أصل المسألة العام إلا أنهم اختلفوا في التقريرات وكذلك النتائج المترتبة على تلك التقريرات .

٦٩- شبهات وردود حول الحضارة الإسلامية : محمد علي عبد الحفيظ : ، الأزهر الشريف ، مجمع البحوث الاسلامية ، سلسلة البحوث الاسلامية (٥١/٨) ، ايداع ٢٦٤٨٣ / ص ص٤٨-٤٩.

أما عن المعتزلة فأول مسألة يُعنَون بتقريرها في قضية الإمامة هي مسألة وجوب إقامة الإمام لأنه إذا كان الاجتماع ضروريا وحتمياً فإن التناقضات وتعارض المصالح أمور واردة بل وحتمية , وبهذا يكون من الضروري وجود سلطة عليا لإقامة التوازن من المصالح المتعارضة وفي قضية وجوب الإمامة اختلف المعتزلة الى فريقين .

1 الأول : وهو رأي جمهور المعتزلة وينتهي إلى حتمية وجوب إقامة الإمام .

2 الثاني : وهو رأي قلة من المعتزلة ويرى عدم وجوب نصب الإمام وذلك على اختلاف في تفصيل الطريقة التي يحويها هذا الاتجاه .

ويتفق المعتزلة مع جمهور أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة في وجوب نصب الإمام مطلقاً حيث لم يختلف في هذه الرؤية إلا النجدات من الخوارج الذين يرون أن السلطة غير ضرورية [٧٠] .

ولكن المعتزلة انتقدوا نظريات الشيعة في الإمامة من القول بالنص والعصمة وكون الإمام حجة وكذلك قياس الإمامة على النبوة إلى غير ذلك من اعتقادات غريبة [٧١] .

فقضية الإمامة عند الشيعة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة واختيارهم بل هي ركن الدين وقاعدة من قواعده وتعد جوهر العقيدة وأساس المذهب إذ لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها وتعتبر حجر الزاوية في المذهب الشيعي وكثير من المعتقدات الأخرى ترتكز عليها [٧٢] .

بل إن لقب (الإمام) هذا المصطلح ظهر مع ظهور الشيعة وإن كان جاء ذكره في القرآن فلم يكن بهذا الإسقاط الأيدولوجي الشيعي , وفي ذلك يقول دكتور محمد عمارة :

« أما لقب الإمام فإن الاتجاه العام لدى الباحثين وكتاب الفرق هو أن نشأته قد ارتبطت بنشأة الفكر النظري الشيعي في موضوع الإمامة

٧٠- انظر الفكر السياسي عند المعتزلة : نجاح محسن : ، دار المعارف ، ايداع : ١٣٧٨٦/ ١٩٩٦ م ، ص ١٢٢.
٧١- انظر المرجع السابق : ص٨٥ وما بعدها - وانظر علم الكلام ومدارسه في الفكر الإسلامي : عطية سلمان : ، منشورات جامعة الجبل الغربي – ليبيا ، ط١٩٩٧، ص٩٠.
٧٢- انظر .. العقائد الفلسفية المشتركة بين الفرق الباطنية : محمد سالم أقدير : ، مكتبة مدبولي ، ط١، ٢٠٠٦م ، ايداع :٢٠٠٥/١٥٨٢٦م ، ص١٦٣ – وما بعدها.
- انظر الشيعة العربية والزيدية : محمد ابراهيم الفيومي ، ، دار الفكر العربي ، ايداع ٤٨١٣/ ٢٠٠٢م ، ص٦٩.

فهذا اللقب لم يطلق على رأس الدولة لا في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر ولم تستخدمه مكاتباتهما السياسية ولا وثائق عهديهما لا وحده ولا كمرادف للقب « خليفة أو أمير المؤمنين « صحيح أن القرآن قد وردت به كلمتا « إمام « و « أئمة « ولكن معنى هاتين الكلمتين في القرآن الكريم - خلافا للشيعة لا ينطبق على ما نعنيه الآن [٧٣] .

ويرى الدكتور محمد عمارة أنه لا خلاف بين المسلمين في الدين إنما كان الخلاف سياسياً وذلك في أول الأمر وأن الصراع كان دائراً حول الخلافة والإمارة والإمامة فيقول :

« ولقد راينا كيف نشأت أولى الفرق الإسلامية - وهي المحكمة « الخوارج « على عهد علي بن أبي طالب بسبب الخلاف حول الإمارة والصراع الدائر عليها ولقد ظلت تلك القضية طوال تاريخ المسلمين الفكري والعملي هي المنبع الذي تصدر منه الفرق والاحزاب أي أن قضية الإمارة والخلافة والإمامة وقضايا الصراع على السلطة العليا في الدولة كان دائما مصدر تكوين الفرق ونشأة المذاهب وظهور الأحزاب [٧٤] .

وقد كان أول من لقب بالإمام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم تلقب به العباسيون والفاطميون , وقد كان الشيعة أول من خصوا عليا بالإمامة تعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر وكذلك من يسوقون إليهم منصب الخلافة من بعده كانوا يسمونهم كلهم بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء فإذا استولى أحدهم على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين [٧٥] .

والفارق الجوهري بين نظرة الشيعة وأهل السنة للإمامة أن الشيعة يرون أن تعيين الأئمة واجب منطقي على العناية الإلهية أو أنه لطف واجب يلتزم به الله كما التزم بإرسال الأنبياء , وأهل السنة متفقون في الطابع الإلزامي إلا إنهم يختلفون في طبيعة هذا الإلزام باختلاف مدارسهم .

٧٣- الإسلام وفلسفة الحكم : محمد عمارة : ، دار الشروق ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص٣٣.
٧٤- المرجع السابق ، ص١١٦.
٧٥- انظر .. عبقرية الإسلام في أصول الحكم : منير العجلاني : ، ص١٢٩.
- وانظر مذاهب العلماء في الإمامة « .
- فلاسفة الحكم والإدارة في العصر الإسلامي الوسيط (الجاحظ) الثعالب - نظام الملك الطوسي ، ابن جماعة ، ابن الأزرق : نجاح محسن « : ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، إيداع ٨٤٦٤ /٢٠١٣م.

فذهب ابن حزم وحده بإسناد الإمامة الى نص ليس في القرآن , وبينما يرى الأشاعرة أن الإمامة شرعية فحسب , أما القرامطة والفلاسفة فقد رأوا أنها إلزام عقلي والواقع أن الإجماع هو الذي يقرر الخلافة كما صرح بذلك سعد الدين التفتازاني وحاول الغزالي استخراج نص من الشريعة فلم يجد فاضطر الى التدليل العقلي [٧٦] .

ومما تجدر الإشارة إليه في نهاية هذا المبحث وهو على الرغم من أن الدولة في الإسلام نشأت على أسس عقدية إلا أن بنيتها المؤسسية والهيكلية تضمنت مبادئ تقترب وتبتعد من مفاهيم الدولة الحديثة كالشفافية وتداول السلطة والمساءلة والمحاسبة , وبعض الإجراءات السياسية كالانتخابات وغيرها .

المبحث السابع :
مفهوم الدولة عند فلاسفة العصر الحديث

إن إشكالية مفهوم الدولة هو تعدد تعاريفها وترجع تعددية هذه التعاريف إلى تنوع وجهات النظر التي ينطلق منها أصحابها , فالجغرافي يعرف الدولة من خلال تراب وطني محدود , والسوسيولوجي لا يفصلها عن واقعة التمييز بين الحاكمين والمحكومين , فين حين يرى المؤرخ أنها تعبير عن نمط وجود أمة , كما يعتبرها القانوني بمثابة نسق من الضوابط , وينظر إليها الفيلسوف كجوهر أخلاقي واع بذاته , أما الاقتصادي وتبعا للمدرسة التي ينتمي إليها فهو يعتبرها السلطة التخطيطية العليا , بل حتى الشاعر يقترح تصوره الخاص للدولة سواء بنقدها على أساس أنها الوحش الأكثر هدوءاً من بين الوحوش الهادئة أو برفعه في اتجاه جعل الدولة الجدار الذي يحيط بالحديقة حيث تنيع أزهار وثمار البشرية [٧٧] .

٧٦- انظر نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع : هنرى لاروست ، ت/ محمد عبد العظيم علي ، ت/ مصطفى حلمي ، دار الأنصار – القاهرة ، ايداع/٤٩٣٣ لسنة ١٩٧٩م ، ص١٨٩.

٧٧- انظر الدولة : محمد الهلالي ، عزيز لزرق : ، دار توبقال للنشر (دفاتر فلسفية) المغرب ، ط١ ٢٠١١م ، ص٩.

المطلب الأول : مفهوم الدولة الحديثة والعقد الاجتماعي

والدولة في العصر الحديث تمتاز بنظرية العقد الاجتماعي وهي تقوم على قضيتين مترابطتين أوثق ترابط هي :

1. عقد المجتمع : الذي يوضح لنا أن المجتمع البشري المنظم إنما نشأ بمقتضى عقد أبرمته جماعة من الناس فيما بينهم بهدف التخلص من حالة الفوضى التي كانت سائدة .
2. عقد الحكم : وهو أن الحاكم يمارس سلطته بمقتضى عقد أبرم بينه وبين المحكومين وأنه مسئول قبلهم على تنفيذه وما يتضمنه هذا العقد والالتزام بحدوده [٧٨] .

وخلاصة هذه النظرية أن وجود الدولة (السلطة) يرجع إلى الإرادة المشتركة لأفراد الجماعة أي أن الافراد اجتمعوا واتفقوا على إنشاء مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا فالدولة على هذا الاساس قد وجدت نتيجة لعقد أبرمته الجماعة .

وأهم من اعتنق هذه النظرية ثلاثة :

1. **هوبز :** يرى هذا الفقيه أن حالة الإنسان قبل نشوء الدولة كانت فوضى مبعثها الشر المتأصل في نفوس البشر , وكانت الغلبة للأقوياء والحق يتبع القوة وإزاء هذه الفوضى والبدائية وعدم توفر الأمن والاستقرار للأفراد فقد بحثوا عن وسيلة لحمايتهم وكانت هذه الوسيلة هي اتفاقهم على اختيار شخص من بينهم يكون رئيساً عليهم يتولى رعاية مصالحهم وحمايتهم , ويرى هوبز أن الحاكم ليس طرفا في العقد بل الافراد يعقدون ويتنازلون بمقتضى العقد للحاكم عن جميع حقوقهم بدون قيد أو شرط فسلطته مطلقه ولا يسأل عما يفعل وعلى الأفراد أن يخضعوا ويطيعوا وهذه النظرية تؤيد الحكم الاستبدادي [٧٩] .
2. **نظرية العقد الاجتماعي عند جون لوك :** كان لا يتابع سلفه في أن الجماعة كانت تعيش فوضى وإنما رأي الأفراد كانوا يتمتعون بحريتهم

٧٦- انظر نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية في السياسة والاجتماع : هنرى لاروست ، ت/ محمد عبد العظيم علي ، ت/ مصطفى حلمي ، دار الأنصار – القاهرة ، ايداع/٤٩٣٣ لسنة ١٩٧٩م ، ص١٨٩.

٧٧- انظر الدولة : محمد الهلالي ، عزيز لزرق ، دار توبقال للنشر (دفاتر فلسفية) المغرب ، ط١ ٢٠١١م ، ص٩.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

في ظل القانون الطبيعي , ولكن لغموض هذا القانون ولتشابك المصالح رأوا أن يتركوا هذه الحرية المطلقة إلى نوع من النظام يقوم على أساسه التعاون بين الجماعة ويخضعون لحاكم عادل فاتفقوا على اختيار أحدهم لتولي أمرهم ولكن لا يتنازلون عن جميع حقوقهم [٨٠] .

2 **نظرية العقد الاجتماعي عند جان جاك روسو :** فيرى روسو أن الإنسان كان يعيش قبل نشأة الدولة في حرية كاملة ولكن نظراً لتعارض المصالح والميول والنزعات الشريرة فقد اضطر الأفراد الى البحث عن نظام يكفل لهم الأمن ويحقق العدالة فتعاقدوا على إنشاء مجتمع سياسي يخضع لسلطة عليا ويعتبر هذا العقد هو أساس نشأة الدولة وسند السلطة معاً [٨١] .

ويمكننا أن نقسم الدولة عند هؤلاء الى قسمين لنضيف في تصنيفهم آخرين :

1 أولًا : من كانوا في خدمة الاستبدادية وهم : ميكافيل وبودان وهوبس .

1 ثانياً : من كانوا في خدمة الحرية وهم : لوك ومونتسيكو وروسو .

* أما عن ميكافيل : فقاعدته أن الغاية عنده تبرر الوسيلة , وفي مفهومه للدولة فإن ثمة غاية واحدة هي ازدهار الدولة وعظمتها وإن هذه الغاية تتجاوز مفهوم الخير والشر الذي يعرفه الأفراد في الأخلاق المعروفة إنه بمجرد أن تكون مصلحة الدولة في خطر فإنه لا محل لأي اعتبار من عدل أو ظلم من انسانية أو وحشية من مجد أو حطة إن كل سبيل لإنقاذ الدولة والحفاظ على سبيل طية إن الوطن يكون محصوناً منيعاً سواء أكان بالدفاع عنه قائماً على المجد أم على العار وأن هذا ليصدق في السياسة الداخلية ويصدق في السياسة الخارجية [٨٢] .

وإن ميكافيل لا يرى للدين فائدة إلا في نطاق حماية الدولة والحفاظ عليها فضلًا عن تأخيره أولوية الأخلاق وجعل غايته هي الدولة فهدم ميكافيل ما أسسه السابقون من الأخلاقيات المطلوبة في الدولة

٨٠- انظر المرجع السابق ، ص٢٦.
٨١- المرجع السابق ، ص٢٦.
٨٢- مفهوم الدولة (محاضرات في مبادئ الحقوق العامة) : مصطفى البارودي : مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ، ١٣٧٠هـ /١٩٥١م ، ص١٣٩.

فلن نحكم على دولة كما كان يحكم السابقون عليها بميزان الأخلاق .
« لقد كشف ميكافيل عن شريعة الغاب في سياسة عصره , وقدم المبررات لأدنى الوسائل التي تستعملها فمهد بذلك للدول الوطنية مع بقائها على النصرانية في اسمها وظاهرها أن تعتقد أنه لا جناح عليها في أن تحصل بأي ثمن على السعادة والعظمة الزمنية للمجموعة البشرية التي تمثلها مهما كانت الوسائل التي تستعملها ما دامت تختفي وراء الظواهر الحسنة» [٨٣] .
** أما عن مونتسكيو : تقوم الفكرة السياسية لدى مونتسكيو على احتقار الاستبدادية والخشية منها وتمجيد الحرية والتطلع إليها والحرية نقيض الاستبداد والاستبداد عند مونتسكيو هو حكم رجل واحد من غير قانون ولا قاعدة يعمل كل شيء بإرادته وأهوائه إنه حكم الفوضى والاضطراب والقسوة أما الحرية فهي حكم القوانين والسلامة والأمن والعقل والاعتدال [٨٤] .

المطلب الثاني : أشكال الدولة في العصر الحديث (الدولة القومية الحديثة) .

فقد أدى تعدد اللغات في أوربا وانفصالها عن اللغة الأم اللاتينية الى زيادة وتأكيد الاحساس بالقومية بالإضافة الى تنافس التجار الذين يتكلمون بلغات مختلفة ساعد في تنمية الوعي القومي وبذلك ظهرت الدولة القومية في انجلترا وفرنسان واسبانيا , وأخذت تتسع قاعدة الدولة القومية في القرن التاسع عشر , وكانت الدولة القومية عند بدء العصر الحديث تعتبر ملكا ومصلحة خاصة للملك وليس للأمراء نصيب على الأخلاق , ولكن أخذ المواطنون يشتركون تدريجيا في السياسة , ولم ينظر إليهم كملاك مساهمين ومتساويين في الدولة إلا بعد الثورة الفرنسية .

٨٣- المرجع السابق ، ص١٤٨.
٨٤- المرجع السابق ، ص٢١٧.

كلية الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
IUM المركز الرئيسي

وإن فكرة الدولة القومية قد كملت وتمت فقط حين نظمت الجماعة المرتبطة بشعور قومي واحد ومشترك تنظيماً سياسياً كدولة حديثة شعبية .

المطلب الثالث : أشكال الدولة في العصر الحديث (الدولة الفيدرالية) .

وهي دولة تقوم على المعاهدة والاتفاق فالدولة التي تتفق طوعا على أن تتحد لأن في الوحدة تكمن القوة تكون اتحادا فيدراليا , ويحدث ذلك غالبا حين توجد دول مستقلة وذات سيادة ضعيفة بدرجة تحول بينها وبين صد أي عدوان خارجي وهي منفردة أو متخلفة اقتصادياً تخلفا لا تستطيع القضاء عليه إن هي بقيت وحدها وإن مثل هذا الاتحاد يتحقق نتيجة للقوى المركزية الجاذبة والأداة التي تقوم بها الفدرالية تحمل طابع المعاهدة أو الاتفاق بين الدول المستقلة وبين وحدة الحكم القومية أو المركزية الجديدة التي تتفق على خلقها , وفي النظام الفيدرالي تختفي الدول المنفصلة بعد تدمير سيادتها ويخلق مواطنوها بعد تحررهم من الولاء القديم دولة فيدرالية على أساس الوحدة القومية [٨٥] .

٨٥- انظر دولة الرسول في المدينة : محمد ممدوح العربي : ، ص ص ٤١- ٤٥.

الخاتمة وأهم النتائج

الحمد لله في الأولى وفي الآخرة الحمد لله الذي وفق وأعان على كتابة هذه الصفحات , وهاهنا نحط رحالنا في عجز هذه الدراسة ومختتمها بعد استعراض ومناقشة مفهوم الدولة وتطورها ونخلص من بعد هذا العرض بنتائج من أهمهما :

1 كشف الدراسة أن مفهوم الدولة مفهوم متسع جدا لأنه يتعلق بالأفكار والأيدولوجيات وكذلك طبيعة الزمان والمكان والأشخاص ومن الخطأ الفادح إسقاط نموذج قديم على واقع مختلف غير متفق أو مؤتلف لأنه ساعتها سيحصل الخلل وتنتج الكوارث .

2 أبانت الدراسة أن دولة الإسلام في المدينة ورئيسها النبي عليه الصلاة والسلام تختلف بلا أدنى شك عن الدول التي تلتها بما فيها من عوار واختلال , وذلك يرجع لاختلاف العوامل المؤثرة , فدولة الرسول صلى الله عليه وسلم تأسست بالوحي وكان قوامها إيمان أصحابها بالمبادئ الإيمانية التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين ظهرانيهم , ولذلك لابد لنا جميعا كباحثين ومختصين أن يكون عندنا الجرأة في أن نصرح بهذا الاختلاف حتى لا تعود أخطاء الأفراد والجماعات على الإسلام ومنهجه وأهله تبعا .

3 كشفت الدراسة أن فكرة الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله في المدينة كانت قائمة على تبليغ الرسالة الإلهية بأخلاقياتها وما لها من يد طولى في ذلك وأما ما ظهر من دعاوي إقامة الدولة الإسلامية حديثا كما ادعاها تنظيم الدولة الإسلامية الذي يطلق عليها اختصارًا بداعش فهذا ظلم بين وواضح للإسلام وأصوله فشتان بين الحق والباطل , وشتان بين مراعاة النصوص وروحها وفقهها, وبين من يجترها إلى الإفساد في الأرض والقتل والتدمير والتفجير .

4 أوضحت الدراسة أن الدولة الإسلامية هي دولة ترعى حقوق قاطنيها ومواطنيها وإن لم يلتزموا دينها فهم في جوارها آمنون لا يهضمون حقا ولا يبخسون نصيبا .

5 كشفت الدراسة أن الفكرة التي تُسقط أمر الخلافة الإسلامية أو الإمامة العظمى في التاريخ الإسلامي على مفهوم الدولة الحديثة هي فكرة غير نضيجة فقد تبين من البحث أن طبيعة المكان والزمان والواقع تختلف اختلافا جذريا فلا مناص أن نضع كل واحدة منها في موضعها بلا تعسف أو تهوك .

6 أظهرت الدراسة مساهمة الفلسفة في بناء نموذج الدولة النظرية بينما عرضت الدراسة التمايز بين النموذج الإسلامي والنموذج الغربي من حيث مصادر المشروعية وأدوات الحكم .

التوصيات

توصي الدراسة بعدة توصيات هي :

1 عمل بحوث ودراسات تناقش أفكار الجماعات المتطرفة حول الدولة والحكم والسياسة .

2 إقامة ندوات للتعريف بمفاهيم الدولة , وعلاقتها بعلوم السياسة الحديثة .

3 مراجعة مفاهيم الدولة في التراث الإسلامي للاستفادة من مواطن النبوغ السياسي ومعالجة الخلل والعوار في فلسفة الدولة في الغرب والفلسفة الحديثة .

أهم المصادر والمراجع

- أرسطو طاليس : السياسة ، تعليق : بارتلمي سانتهيلير ، ت/ أحمد لطفي السيد ، دار القومية للطباعة والنشر ، د/ت .
- أنا مانسيني : ماعت فلسفة العدالة في مصر القديمة ، ت/ محمد رفعت عواد وآخرون ، الهيئة المصرية ، إيداع بدار الكتب ٢٤٠٤٠/ ٢٠٠٩م
- أميرة حلمي مطر : في فلسفة السياسة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ايداع ٢٩٩٨/١٩٧٨م .
- إسبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، ت/ حسن حنفي ، فؤاد زكريا ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥ .
- عبد الغفار مكاوي: المنقذ قراءة لقلب افلاطون ،دار الهلال ، العدد٤٤٠ ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- عبد الغني عبود : الدولة الإسلامية والدولة المعاصرة ، دار الفكر العربي ، ط١ ، ١٩٨١م .
- عمر الشريف : نظم الحكم والإدارة في الدولة الإسلامية ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٤١١هـ /١٩٩١م .
- فريدريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة ، (اليونان ، وروما) ، ت/ إمام عبدالفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، ط١ ٢٠٠٢م .
- مصطفى النشار : الخطاب السياسي في مصر القديمة ، الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٦ .
- محمد البهي : الدين والدولة (من توجيه القرآن الكريم ، مكتبة وهبه ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م
- محمد ممدوح العربي : دولة الرسول في المدينة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .
- مصطفى البارودي : مفهوم الدولة (محاضرات في مبادئ الحقوق العامة) مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ، ١٣٧٠هـ /١٩٥١م .
- هيجل : أصول فلسفة الحق ، ت/ إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير

للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - ط٣ ، ٢٠٠٧م .
- يوسف كرم , إبراهيم مدكور : دروس في الفلسفة ، عالم الأدب للترجمة والنشر - القاهرة - بيروت - لبنان ،ط١ ، ٢٠١٦م .

كـلـيـة الدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية بمنيسوتا